

سورة الأنعام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهي مكية في قول الاكثرين؛ قال ابن عباس وقتادة: هي مكية كلها إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة، قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ نزلت في مالك بن الصيف وكعب بن الاشرف اليهوديين، والاخرى قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ نزلت في ثابت بن قيس بن شماس الانصاري. وقال ابن جريج: نزلت في معاذ بن جبل، وقاله الماوردي. وقال الثعلبي: سورة «الأنعام» مكية إلا ست آيات نزلت بالمدينة ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إلى آخر ثلاث آيات و﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخر ثلاث آيات؛ قال ابن عطية: وهي الآيات المحكمات. وذكر ابن العربي: أن قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ﴾ نزل بمكة يوم عرفة. وسيأتي القول في جميع ذلك إن شاء الله. وفي الخبر أنها نزلت جملة واحدة غير الست الآيات، وشيعها سبعون ألف ملك، مع آية واحدة منها اثنا عشر ألف ملك، وهي ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ نزلوا بها ليلاً لهم زَجَلٌ بالتسبيح والتحميد، فدعا رسول الله ﷺ الكتّاب فكتبوها من ليلتهم (١). وأسند أبو جعفر النحاس قال: حدثنا محمد ابن يحيى حدثنا أبو حاتم روح بن الفرّج مولى الحضارمة قال حدثنا أحمد بن محمد أبو بكر العمري حدثنا ابن أبي فديك حدثني عمر بن طلحة بن علقمة بن وقاص عن نافع أبي سهل بن مالك عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سد ما بين الخافقين لهم زَجَلٌ بالتسبيح» والأرض لهم ترتج ورسول الله ﷺ يقول: «سبحان ربي العظيم» ثلاث مرات (٢). وذكر الدارمي أبو محمد في مسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: الأنعام من نجائب القرآن (٣). وفيه عن كعب قال: فاتحة «التوراة» فاتحة الأنعام وخاتمتها خاتمة «هود» (٤). وقاله وهب بن منبه أيضاً. وذكر المهدوي قال المفسرون: إن «التوراة» افتتحت بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية وختمت بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ﴾ [الإسراء: ١١١] إلى آخر الآية. وذكر الثعلبي عن جابر عن النبي ﷺ قال: «من قرأ ثلاث آيات من أول سورة «الأنعام» إلى قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُكْسِبُونَ﴾ وكل الله به أربعين ألف ملك يكتبون له مثل عبادتهم إلى يوم القيامة، وينزل ملك من السماء السابعة ومعه مرزبة من حديد، فإذا أراد الشيطان أن

(١) ضعيف: ابن الضريس (١٩٦) في فضائله، وأبو عبيد (ص ١٢٩) بسند ضعيف.

والزجل: صوت عال بالتسبيح (النهاية ٢/ ٢٩٧) لابن الأثير.

(٢) ضعيف: فيه طلحة بن علقمة وهو لين الحديث وانظر الطبراني (٦٤٤٧) في الأوسط، وضعفه الهيثمي (٧/ ٢٠) في المجمع وأعله به محمد بن عبد الله بن عرس عن أحمد بن محمد بن أبي بكر السالمي شيخ الطبراني (وقال: «لم أرو عنهما».

(٣) ضعيف: الدارمي (٢/ ٤٥٣) في سننه في فضائل القرآن.

(٤) صحيح: السابق (٢/ ٤٥٣).

يوسوس له أو يُوحِي في قلبه شيئاً ضربه ضربة فيكون بينه وبينه سبعون حجاباً، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى: «امش في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي وكل من ثمار جنتي واشرب من ماء الكوثر واغتسل من ماء السلسيل فانت عبدي وأنا ربك»^(١). وفي البخاري عن ابن عباس قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة «الأنعام» ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠] (٢).

تنبيه قال العلماء: هذه السورة أصل في محاجة المشركين، وغيرهم من المستدعين، ومن كذب بالبعث والنشور؛ وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة؛ لأنها في معنى واحد من الحجة، وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة، وعليها بنى المتكلمون أصول الدين؛ لأن فيها آيات بينات تردّ على القدرية دون السور التي تذكر والمذكورات، وستزيد ذلك بياناً إن شاء الله بحول الله تعالى وعونه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَقُولُونَ ۖ﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بدأ سبحانه فاتحتها بالحمد على نفسه، وإثبات الألوهية؛ أي: أن الحمد كله له فلا شريك له. فإن قيل: فقد افتتح غيرها بالحمد لله فكان الاجتزاء بواحدة يغني عن سائرهم؛ فيقال: لأن لكل واحدة منه معنى في موضعه لا يؤدّي عنه غيره من أجل عقده بالنعم المختلفة، وأيضاً فلما فيه من الحجة في هذا الموضع على الذين هم بربهم يعدلون. وقد تقدّم معنى «الحمد» في الفاتحة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أخبر عن قدرته وعلمه وإرادته فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ أي: اخترع وأوجد وأنشأ وابتدع. والخلق يكون بمعنى الاختراع، ويكون بمعنى التقدير، وقد تقدّم، وكلاهما مراد هنا؛ وذلك دليل على حدوثهما؛ فرفع السماء بغير عمد، وجعلها مستوية من غير أود، وجعل فيها الشمس والقمر آيتين، وزينها بالنجوم، وأودعها السحاب والغيوم علامتين؛ وبسط الأرض وأودعها الأزراق والنبات، وبث فيها من كل دابة آيات؛ وجعل فيها الجبال أوتاداً، وسبلاً فجاجاً، وأجرى فيها الأنهار والبحار، وفجر فيها العيون من الأحجار دلالات على وحدانيته، وعظيم قدرته، وأنه هو الله الواحد القهار، وبين بخلقه السموات والأرض أنه خالق كل شيء.

الثالثة: خرّج مسلم قال: حدثني سريج بن يونس وهارون بن عبد الله قالوا: حدثنا حجاج بن محمد قال قال ابن جريج أخبرني إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله عز وجل التربة يوم السبت

(١) لم يصح ذلك عن رسول الله ﷺ. علامات الوضع ظاهرة فيه.

(٢) صحيح: البخاري (٣٥٢٤) في مناقب

وخلق فيها الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل» (١).

قلت: أدخل العلماء هذا الحديث تفسيراً لفاتحة هذه السورة؛ قال البيهقي: وزعم أهل العلم بالحديث أنه غير محفوظ لمخالفة ما عليه أهل التفسير وأهل التواريخ. وزعم بعضهم أن إسماعيل بن أمية إنما أخذه عن إبراهيم بن أبي يحيى عن أيوب بن خالد، وإبراهيم غير محتج به. وذكر محمد بن يحيى قال: سألت علي بن المديني عن حديث أبي هريرة «خلق الله التربة يوم السبت» فقال علي: هذا حديث مدني، رواه هشام بن يوسف عن ابن جريج عن إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن أبي رافع مولى أم سلمة عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي؛ قال علي: وشبك بيدي إبراهيم بن أبي يحيى، فقال لي: شبك بيدي أيوب بن خالد، وقال لي: شبك بيدي عبد الله بن رافع، وقال لي: شبك بيدي أبو هريرة، وقال لي: شبك بيدي أبو القاسم رسول الله ﷺ فقال: «خلق الله الأرض يوم السبت» فذكر الحديث بنحوه. قال علي بن المديني: وما أرى إسماعيل بن أمية أخذ هذا الأمر إلا من إبراهيم بن أبي يحيى، قال البيهقي: وقد تابعه على ذلك موسى بن عبيدة الربذي عن أيوب بن خالد: إلا أن موسى بن عبيدة ضعيف. وروى عن بكر بن الشروء، عن إبراهيم بن أبي يحيى عن صفوان بن سليم، عن أيوب بن خالد وإسناده ضعيف عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن في الجمعة ساعة لا يوافقها أحد يسأل الله عز وجل فيها شيئاً إلا أعطاه إياه» (٢) قال فقال عبد الله بن سلام: إن الله عز وجل ابتداء الخلق فخلق الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين وخلق السموات يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، وخلق الأقوات وما في الأرض يوم الخميس ويوم الجمعة إلى صلاة العصر، وما بين صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس خلق آدم، خرجه البيهقي.

قلت: وفيه أن الله تعالى بدأ الخلق يوم الأحد لا يوم السبت وكذلك تقدم في «البقرة» عن ابن مسعود وغيره من أصحاب النبي ﷺ. وتقدم فيها الاختلاف أيما خلق أولاً الأرض أو السماء مستوفى. والحمد لله.

الرابعة: قوله تعالى: «وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ» ذكر بعد خلق الجواهر خلق الأعراض لكون الجوهر لا يستغنى عنه، وما لا يستغنى عن الحوادث فهو حادث. والجوهر في اصطلاح المتكلمين هو الجزء الذي لا يتجزأ الحامل للعرض؛ وقد أتينا على ذكره في الكتاب «الاستي في شرح أسماء الله الحسنى» في اسمه «الواحد». وسمى العرض عرضاً؛ لأنه يعرض في الجسم والجوهر فيتغير به من حال إلى حال، والجسم هو المجتمع، وأقل ما يقع عليه اسم الجسم جوهران مجتمعان؛ وهذه الاصطلاحات وإن لم تكن موجودة في الصدر الأول فقد دل عليها معنى الكتاب والسنة فلا معنى

(١) صحيح: وقد دار حول هذا الحديث كلام كثير من الأئمة البخاري وابن كثير وابن المديني، وهو عند مسلم (٢٧٨٩) في صفات المنافقين.

(٢) طرفه الأول متفق عليه: البخاري (٩٣٥) في الجمعة، ومسلم (٨٥٢) في الجمعة، وهو بتمامه عند البيهقي (ص ٣٨٣) في الأسماء والصفات.

لإنكارها. وقد استعملها العلماء واصطلحوا عليها، وبنوا عليها كلامهم، وقتلوا بها خصومهم، كما تقدم في «البقرة». واختلف العلماء في المعنى المراد بالظلمات والنور؛ فقال السدي وقادة وجمهور المفسرين: المراد سواد الليل وضياء النهار. وقال الحسن: الكفر والإيمان. قال ابن عطية: وهذا خروج عن الظاهر.

قلت: اللفظ يعمه؛ وفي التنزيل: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثًّا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] ﴿وَالْأَرْضِ﴾ هنا اسم للجنس فإفرادها في اللفظ بمنزلة جمعها؛ وكذلك «النور» ومثله ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧] وقال الشاعر:

كُلُّوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ تَعَفُّوا

وقد تقدم. وجعل هنا بمعنى خلق لا يجوز غيره؛ قاله ابن عطية.

قلت: وعليه يتفق اللفظ والمعنى في النسق؛ فيكون الجمع معطوفاً على الجمع والمفرد معطوفاً على المفرد، فيتجانس اللفظ وتظهر الفصاحة، والله أعلم. وقيل: جمع ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ ووحد «النور» لأن الظلمات لا تتعدى والنور يتعدى. وحكى الثعلبي أن بعض أهل المعاني قال: ﴿جَعَلَ﴾ هنا زائدة؛ والعرب تزيد ﴿جَعَلَ﴾ في الكلام كقول الشاعر:

وَقَدْ جَعَلْتُ أَرَى الْاِثْنَيْنِ أَرْبَعَةً وَالوَاحِدَ اِثْنَيْنِ لَمَّا هَدَيْتِ الْكَبِيرُ

قال النحاس: جعل بمعنى خلق، وإذا كانت بمعنى خلق لم تتعد إلا إلى مفعول واحد، وقد تقدم هذا المعنى، ومحامل جعل في «البقرة» مستوفى.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ابتداء وخبر، والمعنى: ثم الذين كفروا يجعلون لله عدلاً وشريكاً، وهو الذي خلق هذه الأشياء وحده. قال ابن عطية: فـ «ثم» دالة على قبح فعل الكافرين؛ لأن المعنى: أن خلقه السموات والأرض قد تقرر، وآياته قد سطعت، وإنعامه بذلك قد تبين، ثم بعد ذلك كله عدلوا بربههم؛ فهذا كما تقول: يا فلان أعطيتك وأكرمتك وأحسنك إليك ثم تشتمني. ولو وقع العطف بالواو في هذا ونحوه لم يلزم التوبيخ كلزومه بـ «ثم»، والله أعلم.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ مَقْتَرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ الآية خبر، وفي معناه قولان: أحدهما وهو الأشهر، وعليه من الخلق الأكثر، أن المراد آدم عليه السلام والخلق نسله، والفرع يضاف إلى أصله؛ فلذلك قال: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ بالجمع؛ فأخرجه مخرج الخطاب لهم إذ كانوا ولده؛ هذا قول الحسن وقادة وابن أبي نجيح والسدي والضحاك وابن زيد وغيرهم. الثاني: أن تكون النطفة خلقها الله من طين على الحقيقة ثم قلبها حتى كان الإنسان منها؛ ذكره النحاس.

قلت: وبالجمله فلما ذكر جل وعز خلق العالم الكبير ذكر بعده خلق العالم الصغير وهو الإنسان، وجعل فيه ما في العالم الكبير، على ما بيناه في «البقرة» في آية التوحيد (والله أعلم) والحمد لله. وقد روى أبو نعيم الحافظ في كتابه عن مرة عن ابن مسعود أن الملك الموكل بالرحم يأخذ

النطفة فيضعها على كفه ثم يقول: يا رب مُخلِّقة أو غير مُخلِّقة؟ فإن قال مُخلِّقة قال: يا رب ما الرزق، ما الأثر، ما الأجل؟ فيقول: انظر في أم الكتاب، فينظر في اللوح المحفوظ فيجد فيه رزقه وأثره وأجله وعمله، ويأخذ التراب الذي يدفن في بقلته ويعجن به نطفته؛ فذلك قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥] (١). وخرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا وقد ذرَّ عليه من تراب حُفْرته» (٢).

قلت: وعلى هذا يكون كل إنسان مخلوقاً من طين وماء مهين، كما أخبر جل وعز في سورة «المؤمنون»؛ فتتظم الآيات والاحاديث، ويرتفع الإشكال والتعارض، والله أعلم. وأما الإخبار عن خلق آدم عليه السلام فقد تقدّم في «البقرة» ذكره واشتقاقه، ونزيد هنا طرفاً من ذلك ونعته وسنّه ووفاته؛ ذكر ابن سعد في «الطبقات» عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الناس ولد آدم وآدم من التراب» (٣). وعن سعيد بن جبيرة قال: خلق الله آدم عليه السلام من أرض يقال لها دَجَناء (٤)؛ قال الحسن: وخلق (٥) جُؤْجُؤَه من ضَرِيَّة؛ قال الجوهري: ضَرِيَّة قرية لبني كلاب على طريق البصرة وهي إلى مكة أقرب، وعن ابن مسعود قال: «إن الله تعالى بعث إبليس فأخذ من أديم الأرض من عَذْبها ومالحها فخلق منه آدم عليه السلام فكل شيء خلقه من عَذْبها فهو صائر إلى الجنة وإن كان ابن كافر، وكل شيء خلقه من مالحها فهو صائر إلى النار وإن كان ابن تقي؛ فمن ثم قال إبليس: ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ [الإسراء: ٦١] لأنه جاء بالطينة؛ فسمى آدم؛ لأنه خلق من أديم الأرض. وعن عبد الله بن سَلَام قال: خلق الله آدم في آخر يوم الجمعة. وعن ابن عباس قال: لما خلق الله آدم كان رأسه يمس السماء قال: فوطّده إلى الأرض حتى صار ستين ذراعاً في سبعة أذرع عرضاً. وعن أبي بن كعب قال: كان آدم عليه السلام طَوَّالاً جَعْدًا كأنه نخلة سَحُوق (٦). وعن ابن عباس في حديث فيه طول وحج آدم عليه السلام من الهند إلى مكة أربعين حجة على رجليه، وكان آدم حين أُهبط تمسح رأسه السماء؛ فمن ثم صلّع وأورث ولده الصلّع، ونفّرت من طوله دواب البر فصارت وحشاً من يومئذ، ولم يمض حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً، وتوفي على ذروة الجبل الذي أنزل عليه، فقال شيث لجبريل عليهما السلام: «صلّ على آدم» فقال له جبريل عليه السلام: تقدّم أنت فصّل على أبيك وكبر عليه ثلاثين تكبيرة، فأما خمس فهي الصلاة، وخمس وعشرون تفضيلاً لآدم. وقيل: كبر عليه أربعاً؛ فجعل بنو شيث آدم في مغارة وجعلوا عليها حافظاً لا يقربه أحد من بني قابيل، وكان الذين يأتونه ويستغفرون له بنو شيث، وكان عمر آدم تسعمائة سنة وستة وثلاثين سنة.

(١) صحيح: أبو نعيم (٢/ ٢٨٠) في الحلية.

(٢) غريب: أبو نعيم (٢/ ٢٨٠) في الحلية.

قلت: وله شواهد يترقى بها إلى الحسن انظر: مصنف عبد الرزاق (٦٥٣٢) والمجمع (١/ ٤٢) للهيتمي رحمه الله.

(٣) صحيح: أبو داود (٥١١٦) في الأدب، والترمذي (٣٩٨١، ٣٩٨٢) عن أبي هريرة صحيحاً كما قال الألباني والترمذي (٣٢٨١) عن ابن عمر وصححه الألباني.

(٤، ٥) سبق التعليق على هذه الآثار في سورة البقرة عند خلق آدم عليه السلام.

(٦) روى هذا مرفوعاً وقد سبق، والسحوق: الطويلة. اللسان «سحق».

ويقال: هل في الآية دليل على أن الجواهر من جنس واحد؟ الجواب نعم؛ لأنه إذا جاز أن ينقلب الطين إنساناً حياً قادراً عليهما، جاز أن ينقلب إلى كل حال من أحوال الجواهر؛ لتسوية العقل بين ذلك في الحكم، وقد صح انقلاب الجهاد إلى الحيوان بدلالة هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ مفعول. ﴿وَأَجَلَ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ ابتداء وخبر. قال الضحاك: «أَجَلًا» في الموت ﴿وَأَجَلَ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ أجل القيامة؛ فالمعنى على هذا: حَكَمَ أَجَلًا، وأعلمكم أنكم تقيمون إلى الموت ولم يعلمكم بأجل القيامة. وقال الحسن ومجاهد وعكرمة وخصيف وقتادة وهذا لفظ الحسن: قضى أجل الدنيا من يوم خلقك إلى أن تموت ﴿وَأَجَلَ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعني الآخرة. وقيل: ﴿قَضَىٰ أَجَلًا﴾ ما أعلمناه من أنه لا نبي بعد محمد ﷺ، ﴿وَأَجَلَ مُّسَمًّى﴾ من الآخرة. وقيل: ﴿قَضَىٰ أَجَلًا﴾ مما نعرفه من أوقات الأهلّة والزرع وما أشبههما، ﴿وَأَجَلَ مُّسَمًّى﴾ أجل الموت؛ لا يعلم الإنسان متى يموت. وقال ابن عباس ومجاهد: معنى الآية ﴿قَضَىٰ أَجَلًا﴾ بقضاء الدنيا، ﴿وَأَجَلَ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ لابتداء الآخرة. وقيل: الأول قبض الأرواح في النوم، والثاني قبض الروح عند الموت؛ عن ابن عباس أيضاً.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمُوتُونَ﴾ ابتداء وخبر: أي: تَشْكُونَ في أنه إله واحد. وقيل: تمارون في ذلك أي: تجادلون جدال الشاكين؛ والتَّماري المجادلة على مذهب الشك؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَقْتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم: ١٢].

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ يقال: ما عامل الإعراب في الظرف من ﴿في السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾؟ ففيه أجوبة: أحدها: أي: وهو الله المعظم أو المعبود في السموات وفي الأرض؛ كما تقول: زيد الخليفة في الشرق والغرب أي: حكمه. ويجوز أن يكون المعنى وهو الله المنفرد بالتدبير في السموات وفي الأرض؛ كما تقول: هو في حاجات الناس وفي الصلاة، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر ويكون المعنى: وهو الله في السموات وهو الله في الأرض. وقيل: المعنى وهو الله يعلم سِرَّكُمْ وجهركم في السموات وفي الأرض فلا يخفى عليه شيء؛ قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل فيه. وقال محمد بن جرير: وهو الله في السموات ويعلم سِرَّكُمْ وجهركم في الأرض؛ فيعلم مقدّم في الوجهين، والاول أسلم وأبعد من الإشكال. وقيل غير هذا. والقاعدة تنزيهه جل وعز عن الحركة والانتقال وشغل الامكنة. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي: من خير وشر. والكسب الفعل لاجتلاب نفع أو دفع ضرر؛ ولهذا لا يقال لفعل الله كَسَبٌ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ﴾ أي: علامة كانشقاق القمر ونحوها. و﴿مِنْ﴾ لاستغراق الجنس؛ تقول: ما في الدار من أحد. ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الثانية للتبعية. و﴿مُعْرِضِينَ﴾ خبر

﴿كَانُوا﴾. والإعراض ترك النظر في الآيات التي يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله جل وعز من خلق السموات والأرض وما بينهما، وأنه يرجع إلى قديم حي غني عن جميع الأشياء، قادر لا يعجزه شيء، عالم لا يخفى عليه شيء من المعجزات التي أقامها لنبيه ﷺ؛ لِيُسْتَدَلَّ بها على صدقه في جميع ما أتى به.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ يعني مشركي مكة. ﴿بِالْحَقِّ﴾ يعني القرآن، وقيل: بمحمد ﷺ. ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ﴾ أي: يحل بهم العقاب؛ وأراد بالأنباء وهي الأخبار العذاب؛ كقولك: اصبر وسوف يأتيك الخبر أي: العذاب؛ والمراد ما نالهم يوم بدر ونحوه. وقيل: يوم القيامة.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُنْكِرْ لَكُمُ وَارْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا آلَاءَهُمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ ﴿كَمْ﴾ في موضع نصب بأهلكنا لا بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ لأن لفظ الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، وإنما يعمل فيه ما بعده؛ من أجل أن له صدر الكلام. والمعنى ألا يعتبرون بمن أهلكنا من الأمم قبلهم لتكذيبهم أنبياءهم؛ أي: ألم يعرفوا ذلك. والقرن الأمة من الناس، والجمع القرون. قال الشاعر:

إذا ذهبَ القرنَ الذي كنتَ فيهِم وخُلِّفَ في قَرْنٍ فانتَ غريبٌ

فالقرن كل عالم في عصره؛ مأخوذ من الاقتران، أي: عالم مقترن بعضهم إلى بعض؛ وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني يعني أصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» (١) هذا أصح ما قيل فيه. وقيل: المعنى من أهل قرن فحذف، كقوله: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾. فالقرن على هذا مدة من الزمان؛ قيل: ستون عاماً، وقيل: سبعون، وقيل: ثمانون، وقيل: مائة؛ وعليه أكثر أصحاب الحديث أن القرن مائة سنة (٢)؛ واحتجوا بأن النبي ﷺ قال لعبد الله بن بسر: «تَعِيشُ قَرْنًا» فعاش مائة سنة؛ ذكره النحاس. وأصل القرن الشيء الطالع كقرن ماله قرن من الحيوان. ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَكُمْ﴾ خروج من الغيبة إلى الخطاب؛ عكسه ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبِيعَةٍ﴾ [يونس: ٢٢] وقال أهل البصرة: أخبر عنهم بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ وفيهم محمد عليه السلام وأصحابه؛ ثم خاطبهم معهم؛ والعرب تقول: قلت لعبد الله ما أكرمه. وقلت لعبد الله ما أكرمك؛ ولو جاء على ما تقدم من الغيبة لقال: ما لم تمكن لهم. ويجوز مكنته ومكن له؛ فجاء باللغتين جميعاً؛ أي: أعطيناهم ما لم نعطكم من الدنيا. ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ يريد المطر الكثير؛ عبر عنه بالسما

(١) متفق عليه: البخاري (٢٦٥١) في الشهادات، ومسلم (٢٥٣٥) في فضائل الصحابة.

(٢) رجاله ثقات: الهيثمي (٩/ ٤٠٤) في المجمع وعزه للطبراني والبيهقي وقال: «رجال أحد إسنادي البزار رجال

الصفائح غير الحسن بن أيوب الحضرمي وهو ثقة».

لأنه من السماء ينزل.

ومنه قول الشاعر:

إِذَا سَقَطَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ

و﴿مِدْرَارًا﴾ بناء دالٌّ على التكثير؛ كمذكّار للمرأة التي كثرت ولادتها للذكور؛ ومثنثات للمرأة التي تلد الإناث؛ يقال: درّ اللبن يدر إذا أقبل على الحالب بكثرة. وانتصب ﴿مِدْرَارًا﴾ على الحال. ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ أي: من تحت أشجارهم ومنزلهم؛ ومنه قول فرعون: ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١] والمعنى: وسعنا عليهم النعم فكفروها. ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بكفرهم فالذنوب سبب الانتقام وزوال النعم. ﴿وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أي: أوجدنا؛ فليحذر هؤلاء من الإهلاك أيضاً.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ الآية. المعنى: ولو نزلنا يا محمد بمراءى منهم كما زعموا وطلبوا كلاماً مكتوباً «في قيرطاس». وعن ابن عباس: كتاباً معلقاً بين السماء والأرض؛ وهذا يبين لك أن التنزيل على وجهين: أحدهما على معنى نزل عليك الكتاب بمعنى نزول الملك به. والآخر ولو نزلنا كتاباً في قيرطاس يمسه الله بين السماء والأرض؛ وقال: ﴿نَزَّلْنَا﴾ على المبالغة بطول مكث الكتاب بين السماء والأرض. والكتاب مصدر بمعنى الكتابة؛ فبين أن الكتابة في قيرطاس؛ لأنه غير معقول كتابة إلا في قيرطاس أي: في صحيفة، والقيرطاس الصحيفة؛ ويقال: قُرْطَاسٌ بالضم؛ وقُرْطَسٌ فلان إذا رمى فأصاب الصحيفة الملققة بالهدف. ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: فعابنوا ذلك ومسوه باليد كما اقترحوا وبالغوا في مزيه وتقليبه جساً بأيديهم، ليرتفع كل ارتياب ويزول عنهم كل إشكال، لعاندوا فيه وتابعوا كفرهم، وقالوا: سحر مبين إنما سكرت أبصارنا وسُحرنا؛ وهذه الآية جواب لقولهم: ﴿حَتَّى نُنْزِلَ عَلَيْكَ كِتَابًا نَقْرُوهُ﴾ فأعلم الله بما سبق في علمه من أنه لو نزل لكذبوا به. قال الكلبي: نزلت في النضر بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية ونوفل بن خويلد قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الاسراء: ٩٠] الآية.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ لَهُ لَا يَنْظُرُونَ﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِ مَاءً يَلِيْسُونَ ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ اقترحوا هذا أيضاً. و﴿لَوْلَا﴾ بمعنى هلاً. ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ قال ابن عباس: لو رأوا الملك على صورته لما اتوا إذ لا يطيقون رؤيته. مجاهد وعكرمة: لقامت الساعة. قال الحسن وقتادة: لأهلكوا بعذاب الاستئصال؛ لأن الله أجرى سنته

بأن من طلب آية فأظهرت له فلم يؤمن أهلكه الله في الحال ﴿ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ﴾ أي: لا يمهلون ولا يؤخرون.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أي: لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته إلا بعد التجسم بالأجسام الكثيفة؛ لأن كل جنس يأنس بجنسه وينفر من غير جنسه؛ فلو جعل الله تعالى الرسول إلى البشر ملكاً لنفروا من مقاربتة، ولما أنسوا به، ولداخلهم من الرعب من كلامه والإتقاء له ما يكفهم عن كلامه، ويمنعهم عن سؤاله، فلا تَعَم المصلحة؛ ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به وليسكنوا إليه لقالوا: لست ملكاً وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك وعادوا إلى مثل حالهم. وكانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة البشر فاتوا إبراهيم ولوطاً في صورة الآدميين، وأتى جبريل النبي عليهما الصلاة والسلام في صورة دحية الكلبي^(١). أي: لو نزل ملك لرأوه في صورة رجل كما جرت عادة الأنبياء، ولو نزل على عادته لم يروه؛ فإذا جعلناه رجلاً التبس عليهم فكانوا يقولون: هذا ساحر مثلك. وقال الزجاج: المعنى ﴿وَلَبَّسْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: على رؤسائهم كما يلبسون على ضعفته، وكانوا يقولون لهم: إنما محمد بشر وليس بينه وبينكم فرق، فيلبسون عليهم بهذا ويشككونهم؛ فأعلمهم الله عز وجل أنه لو أنزل ملكاً في صورة رجل لوجدوا سبيلاً إلى اللبس كما يفعلون. واللبس الخلط؛ يقال: لبست عليه الأمر ألبسه لبساً أي: خلطته؛ وأصله التستر بالثوب ونحوه. وقال: «لبسنا» بالإضافة إلى نفسه على جهة الخلق، وقال: ﴿مَا يَلْبَسُونَ﴾ فأضاف إليهم على جهة الاكتساب. ثم قال مؤنساً لنبيه عليه الصلاة والسلام ومُعْزِياً: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ﴾ أي: نزل بأعمهم من العذاب ما أهلکوا به جزاء استهزائهم بأنبيائهم. حاق بالشيء يحيق حيقاً وحيوقاً وحيقاًناً نزل؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] و «ما» في قوله: ﴿مَا كَانُوا﴾ بمعنى الذي، وقيل: بمعنى المصدر: أي: حاق بهم عاقبة استهزائهم.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ ٣٣ ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ٣٤ ﴿﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين المستسخرين المكذبين: سافروا في الأرض فانظروا واستخبروا لتعرفوا ما حل بالكفرة قبلكم من العقاب وأليم العذاب؛ وهذا السفر مندوب إليه إذا كان على سبيل الاعتبار بآثار من خلا من الأمم وأهل الديار، والعاقبة آخر الأمر. والمكذبون هنا من كذب الحق وأهله لا من كذب بالباطل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا أيضاً احتجاج عليهم؛ المعنى قل لهم يا محمد: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإن قالوا لمن هو؟ فقل هو ﴿لِلَّهِ﴾؛ المعنى: إذا ثبت أن له ما في السموات والأرض، وأنه خالق الكل إما باعترافهم أو بقيام الحجة عليهم، فالله قادر على أن

يُعَاجِلُهُم بِالْعُقَابِ، وَيُعِثُّهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَلَكِنَّهُ ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: وعد بها فضلاً منه وكرماً، فلذلك أمهل. وذكر النفس هنا عبارة عن وجوده، وتأكيده وعده، وارتفاع الوسائط دونه؛ ومعنى الكلام الاستعطف منه تعالى للمتولين عنه إلى الإقبال إليه، وإخبار منه سبحانه بأنه رحيم بعباده لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب على نفسه فهو موضوع عنده إن رحمتي تغلب غضبي» (١) أي: لما أظهر قضاءه، وأبرزه لمن شاء، أظهر كتاباً في اللوح المحفوظ أو فيما شاء مقتضاه خبر حق ووعد صدق «إن رحمتي تغلب غضبي» أي: تسبقه وتريد عليه.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ اللام لام القسم، والنون نون التأكيد. وقال الفراء وغيره: يجوز أن يكون تمام الكلام عند قوله: ﴿الرَّحْمَةَ﴾ ويكون ما بعده مستأنفاً على جهة التبيين؛ فيكون معنى ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ لِيُمْلِكَنَّكُمْ وليؤخرن جمعكم. وقيل: المعنى ليجمعنكم أي: في القبور إلى اليوم الذي أنكرتموه. وقيل: «إلى» بمعنى «في»، أي: ليجمعنكم في يوم القيامة. وقيل: يجوز أن يكون موضع ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ نصباً على البدل من الرحمة؛ فتكون اللام بمعنى «أن» المعنى: كتب ربكم على نفسه ليجمعنكم، أي: أن يجمعكم؛ وكذلك قال كثير من النحويين في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لَيْسَجْنَهُ﴾ [يوسف: ٢٥] أي: أن يسجنوه. وقيل: موضعه نصب بـ ﴿كَتَبَ﴾؛ كما تكون «أن» في قوله عز وجل ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مِنْ عَمَلٍ مِنْكُمْ سُوءٌ بِجَهَالَةٍ﴾ وذلك أنه مفسر للرحمة بالإمهال إلى يوم القيامة؛ عن الزجاج. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ابتداء وخبر، قاله الزجاج، وهو أجود ما قيل فيه؛ تقول: الذي يكرمني فله درهم، فالفاء تتضمن معنى الشرط والجزاء. وقال الأخفش: إن شئت كان ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع نصب على البدل من الكاف والميم في ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ أي: ليجمعن المشركين الذي خسروا أنفسهم؛ وأنكره المبرد وزعم أنه خطأ؛ لأنه لا يبدل من المخاطب ولا من المخاطب لا يقال: مورت بك زيد ولا مورت بي زيد لأن هذا لا يُشكَلُ فيُبين. قال القُتَيْبِيُّ: يجوز أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ جزاء على البدل من ﴿الْمُكْذِبِينَ﴾ الذين تقدّم ذكرهم. أو على النعت لهم. وقيل: ﴿الَّذِينَ﴾ نداء مفرد.

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ لِيَا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطَعَّمُهُ وَلَا يُطْعَمُهُ قُلْ إِنِّي أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٦﴾ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْقُورُ الْمُبِينُ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: ثبت، وهذا احتجاج عليهم أيضاً. وقيل: نزلت الآية لأنهم قالوا: علمنا أنه ما يحملك على ما تفعل إلا الحاجة، فنحن نجمع لك من أموالنا حتى

تصير أغنانا ^(١) ؛ فقال الله تعالى: أخبرهم أن جميع الأشياء لله ، فهو قادر على أن يغنيني و﴿سَكَنَ﴾ معناه هداً واستقر؛ والمراد ما سكن وما تحرك، فحُدِّفَ لعلم السامع. وقيل: خص الساكن بالذكر لأن ما يعمه السكون أكثر مما تعمه الحركة. وقيل: المعنى ما خلق، فهو عام في جميع المخلوقات متحركها وساكنها، فإنه يجري عليه الليل والنهار؛ وعلى هذا فليس المراد بالسكون ضد الحركة بل المراد الخلق، وهذا أحسن ما قيل؛ لأنه يجمع شتات الأقوال. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لاصراتهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأسرارهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا﴾ مفعولان؛ لما دعوه إلى عبادة الأصنام دين آياته أنزل الله تعالى ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿أَغَيَّرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا﴾ أي: رباً ومعبوداً وناصراً دون الله. ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بالخفض على النعت لاسم الله؛ وأجاز الأخفش الرفع على إضمار مبتدأ. وقال الزجاج: ويجوز النصب على المدح. أبو علي الفارسي: ويجوز نصبه على فعل مضمر كأنه قال: أترك فاطر السموات والأرض؟ لأن قوله: ﴿أَغَيَّرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا﴾ يدل على ترك الولاية له، وحسن إضماره لقوة هذه الدلالة. ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ كذا قراءة العامة، أي: يَرْزُقُ وَلَا يُرْزَقُ؛ دليله قوله تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٧] وقرأ سعيد بن جبيرة ومجاهد والأعمش: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾، وهي قراءة حسنة؛ أي: أنه يرزق عباده، وهو سبحانه غير محتاج إلى ما يحتاج إليه المخلوقون من الغذاء. وقرئ بضم الياء وكسر العين في الفعلين، أي: إن الله يطعم عباده ويرزقهم والولي لا يطعم نفسه ولا من يتخذه. وقرئ بفتح الياء والعين في الأول لمي: الولي: ولا يطعم بضم الياء وكسر العين. وخص الإطعام بالذكر دون غيره من ضروب الإنعام؛ لأن الحاجة إليه أمس لجميع الأنام. ﴿قُلْ إِنِّي أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي: استسلم لأمر الله تعالى. وقيل: أول من أخلص أي: من قومي وأمتي؛ عن الحسن وغيره. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: وقيل لي: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ أي: بعبادة غيره أن يعذبني، والخوف توقع المكروه. قال ابن عباس: ﴿أَخَافُ﴾ هنا بمعنى أعلم. ﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ﴾ أي: العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ أي: فاز ونجا ورحم.

وقرأ الكوفيون ﴿مَنْ يُصْرِفُ﴾ ^(٢) بفتح الياء وكسر الراء، وهو اختيار أبي حاتم وأبي عبيد؛ لقوله: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ ولقوله: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ ولم يقل رَحِمَ على المجهول، ولقراءة أبي ﴿مَنْ يُصْرِفُهُ اللَّهُ عَنْهُ﴾؛ واختار سيبويه القراءة الأولى قراءة أهل المدينة وأبي عمرو قال سيبويه: وكلما قلَّ الإضمار في الكلام كان أولى؛ فأما قراءة من قرأ ﴿مَنْ يُصْرِفُ﴾ بفتح الياء فتقديره: من يصرف الله عنه العذاب، وإذا قرئ ﴿مَنْ يُصْرِفُ عَنْهُ﴾ فتقديره: من يصرف عنه العذاب. ﴿وَفَازَ الْفَوْزَ الْمُنِينُ﴾ أي: النجاة البينة.

﴿وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَسْأَلْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

(١) واه جداً: الواحد (ص ١٧٦) في أسباب النزول، عن الكلبي وهو متروك.

(٢) قراءة سبعة متواترة: تقريب النشر (١٠٩).

قوله تعالى: ﴿وَأِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ المس والكشف من صفات الأجسام، وهو هنا مجاز وتوسّع؛ والمعنى: إن تنزل بك يا محمد شدة من فقر أو مرض فلا رافع وصارف له إلا هو، وإن يصيبك بعافية ورخاء ونعمة ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الخير والضر؛ روى ابن عباس قال: كنت رديف رسول الله ﷺ فقال لي: «يا غلام أو يا بني ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟» فقلت: بلى؛ فقال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، فقد جفّ القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن يضروك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، واعمل لله بالشكر واليقين، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً» أخرجه أبو بكر بن ثابت الخطيب في كتاب «الفصل والوصل» وهو حديث صحيح؛ وقد خرجه الترمذي^(١)، وهذا أتم.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَاكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ القهر الغلبة، والقاهر الغالب، وأقهر الرجل إذا صير بحال المقهور الذليل؛ قال الشاعر:

تَمَنَّى حُصَيْنٌ أَنْ يَسُودَ جِذَاعُهُ فَأَمْسَى حُصَيْنٌ قَدْ أَذَلَّ وَأَقْهَرَا

وقهر غلب. ومعنى ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ فوقة الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم؛ أي: هم تحت تسخيره لا فوقة مكان؛ كما تقول: السلطان فوق رعيته أي: بالمنزلة والرفعة. وفي القهر معنى زائد ليس في القدرة، وهو منع غيره عن بلوغ المراد. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في أمره «الخبير» بأعمال عباده، أي: من اتصف بهذه الصفات يجب ألا يشرك به.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ وذلك أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: من يشهد لك بأنك رسول الله فتزل الآية؛ عن الحسن وغيره. ولفظ ﴿شَيْءٍ﴾ هنا واقع موقع اسم الله تعالى؛ والمعنى الله أكبر شهادة أي: انفراده بالربوبية، وقيام البراهين على توحيده أكبر شهادة وأعظم؛ فهو شهيد بيني وبينكم على أنني قد بلغتكم وصدقت فيما قلته وادعيت من الرسالة.

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ أي: والقرآن شاهد بهوتي. ﴿لَأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ يا أهل مكة. ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي: ومن بلغه القرآن. فحذف «الهاء» لطول الكلام. وقيل: ومن بلغ الحلم. ودل بهذا على أن من لم يبلغ الحلم ليس بمخاطب ولا متعبد. وتبلغ القرآن والسنة مأمور بهما، كما أمر النبي ﷺ بتبليغهما؛ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحَدَّثُوا عَنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ

(١) صحيح: الترمذي (٢٥١٨) في صفة القيامة، وأحمد (١/ ٣٠٣)، وصححه الألباني.

عَلَيَّ مَعْمُودًا فَلْيَسْتَبُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١). وفي الخبر أيضاً؛ من بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله أَخَذَ بِهِ أَوْ تَرَكَه^(٢). وقال مقاتل: من بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له. وقال القرطبي: من بلغه القرآن فكأنما قد رأى محمداً ﷺ وَسَمِعَ مِنْهُ. وقرأ أبو نَهِيك: «وَأَوْحَى إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ» مسمى الفاعل؛ وهو معنى قراءة الجماعة. «أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى» استنساخهم توبيخ وتقرير. وقرئ «أَنْتُمْ» بهمزتين على الأصل. وإن خَفَفَتِ الثَّانِيَةُ قلت: «أَنْتُمْ». وروى الأصمعي عن أبي عمرو ونافع «أَنْتُمْ»؛ وهذه لغة معروفة، تُجْعَلُ بين الهمزتين ألف كراهة لالتقائهما؛ قال الشاعر:

أَيَّا ظِلِّيةِ الْوَعَسَاءِ بَيْنَ جَلَالِ وَيَبْنَ النَّقَا أَنْتَ أَمْ أَمْ سَالِمٍ

ومن قرأ: «إِنْكُمْ» على الخبر فعلى أنه قد حَقَّقَ عَلَيْهِمْ شُرَكَاهُمْ. وقال: «إِلَهَةٌ أُخْرَى» ولم يقل: «أُخْرَى»؛ قال الفراء: لأن الآلهة جمع والجمع يقع عليه التانيث؛ ومنه قوله: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا» [الأعراف: ١٨٠] وقوله «قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى» [طه: ٥١] ولو قال: الأول والآخرة صَحَّ أيضاً. «قُلْ لَا أَشْهَدُ» أي: فانا لا أشهد معكم فحذف لدلالة الكلام عليه، ونظيره «فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ» [الأنعام: ١٥٠].

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

قوله تعالى: «الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ» يريد اليهود والنصارى الذين عرفوا وعاندوا وقد تقدم معناه في «البقرة». و«الَّذِينَ» في موضع رفع بالابتداء. «يَعْرِفُونَهُ» في موضع الخبر؛ أي: يعرفون النبي ﷺ عن الحسن وقناعة، وهو قول الزجاج. وقيل: يعود على الكتاب، أي: يعرفونه على ما يدل عليه، أي: على الصفة التي هو بها من دلالة على صحة أمر النبي ﷺ. «الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» في موضع النعت؛ ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره «فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ».

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾

قوله تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ» ابتداء وخبر أي: لا أحد أظلم «مِمَّنْ افْتَرَى» أي: اختلق «عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ» يريد القرآن والمعجزات. «إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» قيل: معناه في الدنيا؛ ثم استأنف فقال: «وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا» على معنى واذكر «يوم نحشرهم». وقيل: معناه أنه لا يفلح الظالمون في الدنيا ولا يوم نحشرهم؛ فلا يوقف على هذا التقدير على قوله: «الظَّالِمُونَ» لأنه متصل. وقيل: هو متعلق بما بعده وهو «انظر» أي: انظر كيف كذبوا يوم نحشرهم؛ أي: كيف يكذبون يوم نحشرهم ؟.

(١) صحيح: البخاري (٣٤٦١) في أحاديث الأنبياء.

(٢) مرسل: عن قتادة. ابن أبي حاتم (٧١٦٦) في تفسيره.

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ﴾ سؤال إفضاح لا إفصاح. ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: في أنهم شفعاء لكم عند الله بزعمتكم، وأنها تقربكم منه زُلْفَى؛ وهذا توبيخ لهم. قال ابن عباس: كل زعم في القرآن فهو كذب.

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ الفتنه الاختبار أي: لم يكن جوابهم حين اختبروا بهذا السؤال، ورأوا الحقائق، وارتفعت الدواعي ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ تبرءوا من الشرك وانتفوا منه لما رأوا من تجاوزه ومغفرته للمؤمنين. قال ابن عباس: يغفر الله تعالى لأهل الإخلاص ذنوبهم، ولا يتعاطم عليه ذنب أن يغفره، فإذا رأى المشركون ذلك؛ قالوا إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك فتعالوا نقول إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين؛ فقال الله تعالى: أما إذ كنتموا الشرك فاختموا على أفواههم، فسختم على أفواههم، فتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون، فعند ذلك يعرف المشركون أن الله لا يكتُم حديثاً؛ فذلك قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً﴾ [النساء: ٤٢] وقال أبو إسحاق الزجاج: تأويل هذه الآية لطيف جداً، أخبر الله عز وجل بقصص المشركين وافتتانهم بشركهم، ثم أخبر أن فتنتهم لم تكن حين رأوا الحقائق إلا أن انتفوا من الشرك، ونظير هذا في اللغة أن ترى إنساناً يحب غاوية فإذا وقع فيهلكة تبرأ منه، فيقال: ما كانت محبتك إياه إلا أن تبرأت منه. وقال الحسن: هذا خاص بالمنافقين جرؤا على عاداتهم في الدنيا؛ ومعنى ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ عاقبة فتنتهم أي: كفرهم. وقال قتادة: معناه معذرتهم. وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: «يلقى العبد فيقول أي: قل^(١) ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذكرك ترأس وتربع فيقول بلى أي: رب فيقول أظننت أنك مُلاقٍ فيقول لا فيقول إني أنساك كما نسيتني ثم يلقي الثاني فيقول له ويقول هو مثل ذلك بعينه ثم يلقي الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسولك وصليت وصمت وتصدق وتبني بخير ما استطاع قال فيقال ههنا إذا ثم يقال له الآن نبعثُ شاهداً عليك ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي فيختم على فيه ويقال لفخذة ولحمة وعظامه انطقي فتنتطق فخذة ولحمة وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه وذلك المناق وذل الذي سخط الله عليه^(٢).

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ كذب المشركين قولهم: إن عبادة الأصنام تُقرَّبنا إلى الله زُلْفَى، بل ظنُّوا ذلك وظنُّهم الخطأ لا يعذرهم ولا يزيل اسم الكذب عنهم، وكذب المنافقين باعتذارهم بالباطل، وجحدتهم نفاقهم. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: فانظر كيف ضلَّ عنهم افتراؤهم أي: تلاشى وبطل ما كانوا يظنونونه من شفاعة آلهتهم. وقيل: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

(١) هذا ترخيم لفلان.

(٢) صحيح: مسلم (٢٩٦٨) في الزهد.

أي: فارقهم ما كانوا يعبدون من دون الله فلم يغن عنهم شيئاً؛ عن الحسن. وقيل: المعنى عَزَبَ عنهم افتراؤهم لدهشهم، وذهول عقولهم. والنظر في قوله: «انظر» يراد به نظر الاعتبار؛ ثم قيل: ﴿كَذَّبُوا﴾ بمعنى يكذبون، فعبر عن المستقبل بالماضي؛ وجاز أن يكذبوا في الآخرة لأنه موضع دهش وحيرة وذهول عقل. وقيل: لا يجوز أن يقع منهم كذب في الآخرة؛ لأنها دار جزاء على ما كان في الدنيا وعلى ذلك أكثر أهل النظر وإنما ذلك في الدنيا؛ فمعنى ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ على هذا: ما كنا مشركين عند أنفسنا؛ وعلى جواز أن يكذبوا على أنفسهم في بعض المواطن قبل شهادة الجوارح على ما تقدم. والله أعلم. وقال سعيد بن جبيرة في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال: اعتذروا وحلفوا؛ وكذلك قال ابن أبي نجيج وقتادة: وروي عن مجاهد أنه قال: لما رأوا أن الذنوب تغفر إلا الشرك بالله والناس يخرجون من النار قالوا: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. وقيل: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ أي: علمنا أن الأحجار لا تضر ولا تنفع، وهذا وإن كان صحيحاً من القول فقد صدقوا ولم يكتموا، ولكن لا يُعذرون بهذا؛ فإن المعاند كافر غير معذور. ثم قيل في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَّهُمْ﴾ خمس قراءات: قرأ حمزة والكسائي «يكن» بالياء «فتنهم» بالنصب خبر «يكن» «إلا أن قالوا» اسمها أي: إلا قولهم؛ فهذه قراءة بينة. وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو «تكن» بالتاء «إلا أن قالوا» أي: إلا مقالتهم. وقرأ أبي وابن مسعود «وما كان» بدل قوله ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ﴾ «فتنهم» إلا أن قالوا. وقرأ ابن عامر وعاصم من رواية حفص، والأعمش من رواية المفضل، والحسن وقتادة وغيرهم ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ﴾ بالتاء «فتنهم» بالرفع اسم «تكن» والخبر ﴿إلا أن قالوا﴾ فهذه أربع قراءات. الخامسة «ثُمَّ لَمْ يَكُنْ» بالياء «فتنهم»؛ رفع ويذكر الفتنة لأنها بمعنى الفتون، ومثله ﴿فَمِنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى﴾ [البقرة: ٢٧٥] ﴿وَاللَّهُ﴾ الواو واو القسم «ربنا» نعت لله عز وجل، أو بدل. ومن نصب فعلى النداء أي: يا ربنا وهي قراءة حسنة؛ لأن فيها معنى الاستكانة والتضرع، إلا أنه فصل بين القسم وجوابه بالمندى.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٥٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أفرد على اللفظ يعني المشركين كفار مكة. ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي: فعلنا ذلك بهم مجازاة على كفرهم. وليس المعنى أنهم لا يسمعون ولا يفقهون، ولكن لما كانوا لا يتفهمون بما يسمعون، ولا ينقادون إلى الحق كانوا بمنزلة من لا يسمع ولا يفهم. والأكِنَّةُ الأعْطِيةُ جمع كَنَّان مثل الأَسِنَّةِ والسَّنَانِ، والأَعِنَّةُ والعِنَانِ. كَنَنْتُ الشَّيْءَ فِي كَنِهِ إِذَا صَتَّه فِيهِ. وأَكَنْتُ الشَّيْءَ أَخْفَيْتُهُ. والكنانة معبروفة. والكنَّةُ بفتح الكاف والنون امرأة أَيْكُ؛ ويقال: امرأة الابن أو الأخ؛ لأنها في كَنِّهِ. ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي: يفهموه وهو في موضع نصب؛ المعنى كراهية أن يفهموه، أو لئلا يفهموه. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ عطف عليه أي: ثقلاً؛ يقال منه: وَقَرْتُ أذُنَهُ - بفتح الواو - تَوَقَّرَ وَقَرًا أي: صَمَّتْ، وقياس مصدره التحريك إلا أنه جاء بالتسكين. وقد وَقَرَّ الله أذنه يَقَرُّهَا وَقَرًا؛ يقال: اللهم قَرِّ أذنه. وحكى أبو زيد عن العرب: أذنٌ موقورة على ما لم يُسم فاعله؛ فعلى هذا

وَقَرَّتْ - بضم الواو . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف «وَقَرَأَ» بكسر الواو؛ أي: جعل في آذانهم ما سدها عن استماع القول على التشبيه بوقر البعير، وهو مقدار ما يطيق أن يحمل، والوقر الحمل؛ يقال منه: نخلة موقرة وموقرة إذا كانت ذات ثمر كثير. ورجل ذو قرة إذا كان وقوراً بفتح الواو؛ ويقال منه: وقّر الرجل - بضم القاف - وقاراً، ووقّر - بفتح القاف - أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَأَن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أخبر الله تعالى بعنادهم لأنهم لما رأوا القمر منشقاً قالوا: سحر؛ فأخبر الله عز وجل بردهم الآيات بغير حجة.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ مجادلتهم قولهم: تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله؛ عن ابن عباس. ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني قريشاً؛ قال ابن عباس: قالوا للنضر بن الحارث: ما يقول محمد؟ قال: أرى تحريك شفثيه وما يقول إلا أساطير الأولين، مثل ما أحدثكم عن القرون الماضية؛ وكان النضر صاحب قصص وأسفار، فسمع أقاصيص في ديار العجم مثل قصة رستم واسفنديار فكان يحدثهم^(١). وواحد الأساطير أسطار كأييات وأبائيت؛ عن الزجاج. قال الأخفش: واحدها أسطورة كأحدثة وأحاديث. أبو عبيدة: واحدها إسطورة. النحاس: واحدها أسطور مثل عثكول. ويقال: هو جمع أسطار، وأسطار جمع سطر؛ يقال: سطر وسطر. والسطر: الشيء الممتد المؤلف كسطر الكتاب. القشيري: واحدها أسطير. وقيل: هو جمع لا واحد له كمداكير وعبايد وأبائيل أي: ما سطره الأولون في الكتب. قال الجوهري وغيره: الأساطير الأباطيل والترهات. قلت: أنشدني بعض أشياخي:

تطاول ليلى واعترتني وسأوسي
لأت آتى بالترهات الأباطيل

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾ النهي الزجر، والنأي البعد، وهو عام في جميع الكفار أي: ينهون عن اتباع محمد ﷺ، وينأون عنه؛ عن ابن عباس والحسن. وقيل: هو خاص بأبي طالب ينهى الكفار عن إذابة محمد ﷺ، ويتباعد عن الإيمان به؛ عن ابن عباس أيضاً. وروى أهل السير قال: كان النبي ﷺ قد خرج إلى الكعبة يوماً وأراد أن يصلي، فلما دخل في الصلاة قال أبو جهل لعنه الله: من يقرم إلى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته. فقام ابن الزبير فأتى الصلاة فأتى فأتى به وجه النبي ﷺ؛ فانفست النبي ﷺ من صلاته، ثم أتى أبا طالب عمة فقال: «يا عم ألا ترى إلى ما فعل بي؟» فقال أبو طالب: من فعل هذا بك؟ فقال النبي ﷺ: «عبد الله بن الزبير»؛ فقام أبو طالب ووضع سيفه على عاتقه ومشى معه حتى أتى القوم؛ فلما رأوا أبا طالب قد أقبل جعل القوم ينهضون؛ فقال أبو طالب: والله لئن قام رجل لجللته بسيفي فقعدهوا حتى دنا إليهم، فقال: يا بني من الفاعل بك هذا؟ فقال: «عبد الله بن الزبير»؛ فأخذ أبو طالب قرناً ودماً فطأ به وجوههم ولحاهم وثيابهم وأساء لهم القول؛ فنزلت هذه الآية ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾ فقال النبي

(١) سبق تضعيفه في سورة البقرة، وهو مروى من طريق أبي صالح وهو كذاب عن ابن عباس كما عند الواحدى (ص ١٧٦) في أسباب النزول.

ﷺ: «يا عمّ نزلت فيك آية» قال: وما هي؟ قال: «تمنع قريشاً أن تؤذيني وتأبى أن تؤمن بي» فقال أبو طالب:

واللّٰهُ لَنْ يَصْلُوَا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ
فَاصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ
وَدَعَوْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ نَاصِحِي
وَعَرَضْتَ دِينًا قَدْ عَرَفْتُ بِأَنَّهُ
لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسْبَبَةٍ

حَتَّى أَوْسَدَ فِي الثَّرَابِ دَفِينًا
وَابْشُرْ بِذَلِكَ وَقَرَّ مِنْكَ عُيُونًا
فَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ قَبْلُ أَمِينًا
مَنْ خَاسِرَ أَدْيَانَ الْبَرِيَّةِ دِينًا
لَوْجَدْتَنِي سَمَحًا بِذَلِكَ يَقِينًا (١)

فقالوا: يا رسول الله هل تنفع أبا طالب نصرته؟ قال: «نعم دفع عنه بذاك الغلّ ولم يقرن مع الشياطين ولم يدخل في جُبّ الحيات والعقارب إنما عذابه في نعلين من نار في رجليه يغلي منهما دماغه في رأسه وذلك أهون أهل النار عذاباً» (٢). وأنزل الله على رسوله ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَاؤُا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الاحقاف: ٣٥] وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لعمه: «قل: لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة» قال: لولا تُعِيرُنِي قريش يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع لأقررتُ بها عينك؛ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (٣) [القصاص: ٥٦] كذا الرواية المشهورة «الجزع» بالجيم والزاي ومعناه الخوف. وقال أبو عبيد: «الجزع» بالخاء المنقوطة والراء المهملة. قال يعني الضعف والخور، وفي صحيح مسلم أيضاً عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «أهون أهل النار عذاباً أبو طالب وهو متمتع بنعلين من نار يغلي منهما دماغه» (٤). وأما عبد الله بن الزُبَيْري فإنه أسلم عام الفتح وحسن إسلامه، واحترز إلى رسول الله ﷺ فقبل عذره؛ وكان شاعراً مجيداً؛ فقال يمدح النبي ﷺ، وله في مدحه أشعار كثيرة ينسخ بها ما قد مضى في كفره؛ منها قوله:

مَنْعَ الرُّقَادِ بَلَابِلٌ وَهُمُومٌ
مِمَّا أَتَانِي أَنَّ أَحْمَدَ لَأَمْنِي
يَا خَيْرَ مَنْ حَمَلْتَ عَلَى أَوْصَالِهَا
إِنِّي لَمَعْتَزِدُ إِلَيْكَ مِنَ الَّذِي
أَيَّامَ تَأْمُرُنِي بِأَغْوَى خُطَّةٍ
وَأَمَدَ أَسْبَابِ الرَّدَى وَيَقُودُنِي
فَالْيَوْمَ آمَنَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
مَضَّتِ الْعَدَاوَةُ فَانْقَضَتْ أَسْبَابُهَا

وَاللَّيْلُ مُغْتَلِجُ الرُّوَاقِ بِهِمِ
فِيهِ فِتْنَةٌ كَأَنِّي مَحْضُومٌ
عَبْرَانَةٌ سُرْحُ الْيَدَيْنِ غَشُومٌ
أَسَدَيْتُ إِذْ أَنَا فِي الضَّلَالِ أَهِيمٌ
سَهْمٌ وَتَأْمُرُنِي بِهَا مَخْزُومٌ
أَمْرُ الْغَوَاةِ وَأَمْرُهُمْ مَشْنُومٌ
قَلْبِي وَمُخْطِئُهُ هَذِهِ مَخْرُومٌ
وَأَنْتَ أَوْاصِرُ بَيْنَنَا وَحَلُومٌ

(١) هذا الخبر بعضه عند الحاكم (٢/ ٣١٥) في المستدرک وصححه ووافقه الذهبي، وانظر: أسباب النزول (ص ١٧٦) للواحدي.

(٢) سيأتي هذا الجزء صحيحاً دون هذه القصة الطويلة.

(٣) متفق عليه: البخاري (٤٧٧٢) في التفسير، ومسلم (٢٤) في الإيمان عن المسيّب بن حزن والد سعيد رضي الله عنه.

(٤) صحيح: مسلم (٢١٢) في الإيمان.

فاغفرْ فِدَى لَكَ وَالْدَّايَ كِلَاهُمَا
وعَلَيْكَ مِنْ سِمَةِ الْمَلِكِ عَلَامَةٌ
أَعْطَاكَ بَعْدَ مَحَبَّةِ بُرْهَانِهِ
ولقدْ شَهِدْتُ بِأَنْ دِينُكَ صَادِقٌ
وَاللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّ أَحْمَدَ مُصْطَفَى
قَرَّمَ عَلَاءَ بَنِيَانِهِ مِنْ هَاشِمٍ
رَكَلِي فَايْنَكَ رَاحِمٌ مَرَحُومٌ
نُورٌ أَغْرُ وَخَاتَمٌ مَخْتُومٌ
شَرَفَا وَبُرْهَانُ الْإِلَهِ عَظِيمٌ
حَقًّا وَأَنْتَ فِي الْعِبَادِ جَسِيمٌ
مُسْتَقْبَلٌ فِي الصَّالِحِينَ كَرِيمٌ
فَرَعٌ تَمَكَّنَ فِي الذُّرَى وَأَرُومٌ

وقيل: المعنى «يَنْهَوْنَ عَنْهُ» أي: هؤلاء الذين يستمعون ينهون عن القرآن «وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ». عن قتادة؛ فإلهاء على القولين الأولين في «عَنْهُ» للنبي ﷺ، وعلى قول قتادة للقرآن. «وَأِنْ يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ» «إِنْ» نافية أي: وما يهلكون إلا أنفسهم بإصرارهم على الكفر، وحملهم أوزار الذين يصدونهم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا أَيْلَتِنَا نِرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

قوله تعالى: «وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ» أي: إِذْ وَقَفُوا غَدَاً، و «إِذْ» قد تستعمل في موضع «إِذَا» و «إِذَا» في موضع «إِذْ» وما سيكون فكانه كان؛ لأن خبر الله تعالى حقٌ وصدق، فلهذا عبرَ بالماضي. ومعنى «إِذْ وَقَفُوا» حِسُوا يُقَالُ: وَقَفْتَهُ وَقَفًا فَوْقًا وَقُوفًا. وقرأ ابن السَّمِيقِ «إِذْ وَقَفُوا» بفتح الواو والقاف من الوقوف. «عَلَى النَّارِ» أي: هم فوقها على الصراط وهي تحتهم. وقيل: «على» بمعنى الباء؛ أي: وَقَفُوا بِقَرْبِهَا وهم يُعَايِنُونَهَا. وقال الضحَّاك: جُمِعُوا؛ يعني على أبوابها. ويقال: وَقَفُوا على مَتْنٍ جهنم والنار تحتهم. وفي الخبر: أن الناس كلهم يُوقَفُونَ على مَتْنٍ جهنم كأنها مَتْنٌ إِهَالَةٌ، ثم يُنَادِي منادٍ خُذِي أَصْحَابَكَ وَدَعِي أَصْحَابِي. وقيل: «وقفوا» دخلوها أعاذنا الله منها فعلى بمعنى «في» أي: وَقَفُوا فِي النَّارِ. وجواب «لو» محذوف ليذهب الوهم إلى كل شيء فيكون أبلغ في التخويف؛ والمعنى: لو تراهم في تلك الحال لرأيت أسوأ حال، أو لرأيت منظرًا هائلًا، أو لرأيت أمرًا عجبًا وما كان مثل هذا التقدير.

قوله تعالى: «فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» بالرفع في الأفعال الثلاثة عطفاً قراءة أهل المدينة والكسائي؛ وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم بالضم. ابن عامر على رفع «نَكْذِبُ» ونصب «وَنَكُونُ»^(١) وكله داخل في معنى التمني؛ أي: تَمَنَّاوُا الرَّدَّ وَالْأَلَّ يُكْذِبُوا وَأَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. واختار سيبويه القطع في «وَلَا نَكْذِبُ» فيكون غير داخل في التمني؛ المعنى: ونحن لا نَكْذِبُ على معنى الثبات على ترك الكذب؛ أي: لا نَكْذِبُ رُدُّدًا أو لم نُرَدِّ؛ قال سيبويه: وهو مثل قوله دعني ولا أعود أي: لا أعود على كل حال تركتني أو لم تتركني. واستدل أبو عمرو على خروجه من التمني بقوله: «وَأِنْهُمْ لَكَاذِبُونَ» لأن الكذب لا يكون في التمني إنما يكون في

(١) قراءتان سبعيتان متواترتان: تقريب النشر (ص ١٠٩).

الخبر. وقال من جعله داخلاً في التمني: المعنى وإنهم لكاذبون في الدنيا في إنكارهم البعث وتكذيبهم الرسل. وقرأ حمزة وحفص ينصب «نُكْذِبُ» و«نُكُونُ» جواباً للتمي؛ لأنه غير واجب، وهما داخلان في التمني على معنى أنهم تَمَنَّوْا الرد وترك التكذيب والكون مع المؤمنين. قال أبو إسحاق: معنى «وَلَا نُكْذِبُ» أي: إن رُدُّدنا لم نكذب. والنصب في «نكذب» و«نكون» بإضمار «أَنْ» كما ينصب في جواب الاستفهام والأمر والنهي والعرض؛ لأن جميعه غير واجب ولا واقع بعد، فينصب الجواب مع الواو كأنه عطف على مصدر الأول؛ كأنهم قالوا: يا ليتنا يكون لنا رَدٌّ، وانتفاء من الكذب، وَكُونُ من المؤمنين؛ فحملاً على مصدر «نُزِدُ» لانقلاب المعنى إلى الرفع، ولم يكن بد من إضمار «أَنْ» فيه يتم النصب في الفعلين. وقرأ ابن عامر «وَنُكُونُ» بالنصب على جواب التمني كقولك: ليتك تصير إلينا ونكرمك، أي: ليت مصيرك يقع وإكرامنا يقع، وأدخل الفعلين الأولين في التمني، أو أراد: ونحن لا نكرمك على القطع على ما تقدم؛ يحتمل. وقرأ أبي: «وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنا أَبَدًا». وعنه وابن مسعود «يَا لَيْتَنَّا نُرَدُّ فَلَا نُكْذِبُ» بالفاء والنصب، والفاء ينصب بها في الجواب كما ينصب بالواو؛ عن الزجاج. وأكثر البصريين لا يجيزون الجواب إلا بالفاء.

﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ بل إضراب عن تمنيههم وادعائهم الإيمان لو رُدُّوا. واختلفوا في معنى «بَدَأَ لَهُمْ» على أقوال بعد تعيين من المراد؛ فقيل: المراد المنافقون لأن اسم الكفر مشتمل عليهم، فعاد الضمير على بعض المذكورين؛ قال النحاس: وهذا من الكلام العذب الفصيح. وقيل: المراد الكفار وكانوا إذا وعظهم النبي ﷺ خافوا وأخفوا ذلك الخوف لثلا يَفْطَنَ بهم ضعفاؤهم، فيظهر يوم القيامة؛ ولهذا قال الحسن: «بَدَأَ لَهُمْ» أي: بدا لبعضهم ما كان يُخْفِيه عن بعض. وقيل: بل ظهر لهم ما كانوا يجحدونه من الشُّرْكَ فيقولون: «وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» فينطق الله جوارحهم فتشهد عليهم بالكفر فذلك حين «بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ». قاله أبو روق. وقيل: «بَدَأَ لَهُمْ» ما كانوا يكتُمونه من الكفر؛ أي: بدت أعمالهم السيئة كما قال: «وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ» [الزمر: ٤٧] قال المبرد: بدا لَهُمْ جزاء كفرهم الذي كانوا يخفونه. وقيل: المعنى بل ظهر للذين اتبعوا الغواية ما كان الغواية يخفون عنهم من أمر البعث والقيامة؛ لأن بعده «وَقَالُوا إِنَّمَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ».

قوله تعالى: «وَلَوْ رُدُّوا» قيل: بعد معاينة العذاب. وقيل: قبل معاينته. «لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ» أي: لصاروا ورجعوا إلى ما نُهُوا عنه من الشُّرْكَ لعلم الله تعالى فيهم أنهم لا يؤمنون، وقد عاين إبليس ما عاين من آيات الله ثم عاند. قوله تعالى: «وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» إخبار عنهم، وحكاية عن الحال التي كانوا عليها في الدنيا من تكذيبهم الرسل، وإنكارهم البعث؛ كما قال: «وَإِنْ رَبُّكَ لَيَحْكُمُ» [النحل: ١٢٤] فجعله حكاية عن الحال الآتية. وقيل: المعنى وإنهم لكاذبون فيما أخبروا به عن أنفسهم من أنهم لا يكذبون ويكونون من المؤمنين. وقرأ يحيى بن وثاب: «وَلَوْ رُدُّوا» بكسر الراء؛ لأن الاصل رُدُّوا فنقلت كسرة الدال على الراء.

﴿وَقَالُوا إِنَّمَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنَّمَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ ابتداء وخبر و «إن» نافية ﴿وَمَا نَحْنُ﴾ «نحن» اسم «ما» و ﴿بِمَبْعُوثِينَ﴾ خبرها؛ وهذا ابتداء إخبار عنهم عما قالوه في الدنيا. قال ابن زيد؛ هو داخل في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ﴿وَقَالُوا إِنَّمَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي: لعادوا إلى الكفر، واشتغلوا بلذة الحال. وهذا يحمل على المعاند كما بيناه في حال إبليس، أو على أن الله يلبس عليهم بعدما عرفوا، وهذا شائع في العقل.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالِ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ﴿وَقِفُوا﴾ أي: حِسُوا ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: على ما يكون من أمر الله فيهم. وقيل: ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى «عند» أي: عند ملائكته وجزائه؛ وحيث لا سلطان فيه لغير الله عز وجل؛ تقول: وقفت على فلان أي: عنده؛ وجواب «لو» محذوف لعظم شأن الوقوف. ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ تقرير وتوبيخ أي: أليس هذا البعث كائناً موجوداً؟! ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ ويؤكدون اعترافهم بالقسم بقولهم: ﴿وَرَبَّنَا﴾. وقيل: إن الملائكة تقول لهم بأمر الله أليس هذا البعث وهذا العذاب حقاً؟ فيقولون: ﴿بَلَىٰ وَرَبَّنَا﴾ إنه حق. ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرْتُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَمُرُّ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ قيل: بالبعث بعد الموت وبالجزاء؛ دليله قوله عليه السلام: «مَنْ حَلَفَ عَلَىٰ يَمِينٍ كَاذِبَةٍ لِيَقْتَطَعَ بِهَا مَالٌ أَمْرِي مُسْلَمٌ؛ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَان» (١) أي: لقي جزاءه؛ لأن من غضب عليه لا يرى الله عند مشيبي الرؤية، ذهب إلى هذا الفقهاء وغيره؛ قال القشيري: وهذا ليس بشيء؛ لأن حمل اللقاء في موضع على الجزاء للدليل قائم لا يوجب هذا التأويل في كل موضع، فليحمل اللقاء على ظاهره في هذه الآية؛ والكفار كانوا ينكرون الصانع، ومنكروا الرؤية منكر للوجود.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ سميت القيامة بالساعة لسرعة الحساب فيها. ومعنى ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة؛ يقال: بَغْتَهُمُ الْأَمْرُ يَبْغَتْهُمْ بَغْتًا وَبَغْتَةً. وهي نصب على الحال، وهي عند سيبويه مصدر في موضع الحال، كما تقول: قتلتُه صَبْرًا. وأنشد:

فَلَا يَأِيَّ بِأَيِّ مَا حَمَلْنَا وَلَيْدَنَا
عَلَى ظَهْرِ مَحْبُوكٍ ظِمَاءٍ مَفَاصِلِهِ

ولا يجيز سيبويه أن يقاس عليه؛ لا يقال: جاء فلان سُرْعَةً.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا﴾ وقع النداء على الحسرة وليست بمنادى في الحقيقة، ولكنه يدل على كثرة التحسر، ومثله يا للعجب ويا للرخاء وليساً بمنادين في الحقيقة، ولكنه يدل على كثرة التعجب والرخاء؛ قال سيبويه: كأنه قال يا عجبُ تعالَ فهذا زمن إتيانك؛ وكذلك قولك يا حسرتي أي: يا حسرتا تعالي فهذا وقتك؛ وكذلك ما لا يصح نداؤه يجري هذا المجرى، فهذا أبلغ من قولك تعجبت. ومنه قول الشاعر:

فيا عجباً من رَحْلِهَا المتحمِّل

وقيل: هو تنبيه للناس على عظيم ما يحلّ بهم من الحسرة؛ أي: يا أيها الناس تنبّهوا على عظيم ما بي من الحسرة. فوقع النداء على غير المنادى حقيقة؛ كقولك: لا أرينك ها هنا. فيقع النهي على غير النهي في الحقيقة.

قوله تعالى: ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ أي: في الساعة، أي: في التقدمة لها؛ عن الحسن. و﴿فَرَّطْنَا﴾ معناه ضيعنا وأصله التقدّم يقال: ﴿فَرَّطَ فلان أي: تقدّم وسبق إلى الماء، ومنه: أنا فَرَّطْكُمْ على الخوض﴾^(١). ومنه الفَارِط أي: المتقدّم للماء، ومنه في الدعاء للصبي اللهم اجعله فَرَّطاً لأبويه؛ فقولهم: ﴿فَرَّطْنَا﴾ أي: قدّمناه العجز. وقيل: ﴿فَرَّطْنَا﴾ أي: جعلناه غيرنا الفارط السابق لنا إلى طاعة الله وتخلّفنا. ﴿فِيهَا﴾ أي: في الدنيا بترك العمل للساعة. وقال الطبري: (الهاء) راجعة إلى الصّفقة، وذلك أنهم لما تبين لهم خسران صفتهم ببيعهم الإيمان بالكفر، والآخره بالدنيا. ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ أي: في الصّفقة، وترك ذكرها لدلالة الكلام عليها؛ لأن الخسران لا يكون إلا في صّفقة بيع؛ دليله قوله: ﴿فَمَا رِبَحْتَ تِجَارَتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٦]. وقال السّدي: على ما ضيعنا أي: من عمل الجنة. وفي الخبر عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: «يرى أهل النار منازلهم في الجنة فيقولون: ﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾»^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ أي: ذنوبهم جمع وزر. ﴿عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ مجاز وتوسّع وتشبيه بمن يحمل ثقلًا؛ يقال منه: وَزَرَ يَزِرُ، وَوَزَرَ يُوَزِّرُ فهو وازر وموزور؛ وأصله من الوزر وهو الجبل. ومنه الحديث في النساء اللواتي خرجن في جنازة: «ارجعن موزورات غير مأجورات»^(٣) قال أبو عبيد: والعامة تقول: «مأزورات» كأنه لا وجه له عنده؛ لأنه من الوزر. قال أبو عبيد: ويقال للرجل إذا بسط ثوبه فجعل فيه المتاع أحمل وزرك أي: ثقلك. ومنه الوزير لأنه يحمل أثقال ما يسند إليه من تدبير الولاية: والمعنى أنهم لزمهم الآثام فصاروا مثقلين بها. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُونُ﴾ أي: ملأوا الشيء الذي يحملونه.

(١) متفق عليه: البخاري (٦٥٧٥) في الرقاق، ومسلم (٢٢٩٢) في الفضائل، وله عدة روايات هناك: عن عبد الله بن مسعود، وسهل بن سعد، وجندب البجلي، وعقبة بن عامر، وجابر بن سمرة، وأم سلمة رضي الله عنهم جميعاً.

(٢) صححه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٦٢)، وعزاه للطبري (٧/ ١٩٠) في تفسيره وابن أبي حاتم (٤/ ١٢٨٠) في تفسيره.

(٣) ضعيف: وقد سبق.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَذَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: لقصر مدتها كما قال:

ألا إنما الدنيا كإحلام نائم
وما خير عيش لا يكون بدائم
تأمل إذا ما نلت بالامس لذة
فأفيتها هل أنت إلا كحالم

وقال آخر:

فاعمل على مهل فإنك ميت
فكان ما قد كان لم يك إذ مضى
واكدح لنفسك أيها الإنسان
وكان ما هو كائن قد كانا

وقيل: المعنى متاع الحياة الدنيا لعب ولهو؛ أي: الذي يشتهونه في الدنيا لا عاقبة له، فهو بمنزلة اللعب واللهو. ونظر سليمان بن عبد الملك في المرأة فقال: أنا الملك الشاب؛ فقالت له جارية له:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى
ليس فيما بدا لنا منك عيب
غير أن لا بقاء للإنسان
كان في الناس غير أنك فاني

وقيل: معنى ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ باطل وغرور، كما قال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران:

١٨٥] فالقصد بالآية تكذيب الكفار في قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾. واللعب معروف، والتلعب الكثرة اللعب، والملعب مكان اللعب؛ يقال: لعب يلعب. واللهو أيضاً معروف، وكل ما شغلك فقد الهاك. ولهو من اللهو، وقيل: أصله الصرف عن الشيء؛ من قولهم: لهيت عنه؛ قال المهدوي: وفيه بعد؛ لأن الذي معناه الصرف لاهه بآء بدليل قولهم: لهيان، ولام الأول واو.

الثانية ليس من اللهو واللعب ما كان من أمور الآخرة. فإن حقيقة اللعب ما لا ينتفع به واللهو ما يُلتهى به، وما كان مراداً للآخرة خارج عنهما؛ وذم رجل الدنيا عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال علي: الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار نجا لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها. وقال محمود الوراق:

لا تتبع الدنيا وأيامها
من شرف الدنيا ومن فضلها
ذمًا وإن دارت بك الدائرة
أن بها تستدرك الآخرة

وروى أبو عمر بن عبد البر عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان فيها من ذكر الله أو أدى إلى ذكر الله والعالم والمتعلم شريكان في الأجر وسائر الناس همج لا خير فيه» وأخرجه الترمذي عن أبي هريرة وقال: حديث حسن غريب (١). وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «من هوأ الدنيا على الله ألا يعصى إلا فيها ولا ينال ما عنده إلا بتركها» (٢). وروى الترمذي عن سهل بن سعد قال قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند

(١) كذا في الاستذكار (٤١٢٦٦) لابن عبد البر. والقطعة الأولى منه بسند حسن عند الترمذي (٢٣٢٢) في الزهد بتحسين الألباني رحمه الله.

(٢) هذا حديث بمعناه لا بلفظه والله أعلم.

الله جناحَ بَعُوضَةٍ ما سَقَى كافرًا منها شَرْبَةَ ماء»^(١) . وقال الشاعر :

تَسْمَعُ من الأيامِ إن كنتَ حازما فإنك منــــــــــــــــها بين ناهٍ وأمرٍ
إذا أَبقتَ الدنيا على المرءِ دينه فما فات من شيءٍ فليس بضائرٍ
ولن تَعْدَلَ الدنيا جناحَ بَعُوضَةٍ ولا وَزَنَ زَفٍّ مَسْنٍ جناحَ لطائرٍ
فما رَضِيَ الدنيا ثواباً للمؤمنِ ولا رَضِيَ الدنيا جزاءً للكافرِ

وقال ابن عباس: هذه حياة الكافر لأنه يَرْجِيها في غرور وباطل، فأما حياة المؤمن فتطوي على أعمال صالحة، فلا تكون لهواً ولعباً.

قوله تعالى: ﴿وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي: الجنة لبقائها؛ وسميت آخرة لتأخرها عنا، والدنيا لدنوها منا.

وقرأ ابن عامر «وَلِدَارُ الْآخِرَةِ»^(٢) بلام واحدة؛ والإضافة على تقدير حذف المضاف وإقامة الصفة مقامه، التقدير: ولدَار الحياة الآخرة. وعلى قراءة الجمهور «وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ» اللام لام الابتداء. ورفع الدار بالابتداء، وجعل الآخرة نعتاً لها والخبر «خَيْرٌ لِلدِّينِ» يقويه «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ» [القصص: ٨٣] «وَأَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوانِ» [العنكبوت: ٦٤] فأنت الآخرة صفة للدَّار فيهما «لِلدِّينِ يَتَّقُونَ» أي: الشرك. «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» قرئ بالياء والتاء؛ أي: أفلا يعقلون أن الأمر هكذا فيزهدوا في الدنيا. والله أعلم.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُنَا الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِبِغَايَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾^(٣) وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبِّرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُنَا الَّذِي يَقُولُونَ﴾ كسرت «إِنَّ» لدخول اللام. قال أبو ميسرة: إن رسول الله ﷺ مرَّ بابي جهل وأصحابه فقالوا: يا محمد والله ما نُكذِّبُكَ وإنك عندنا لصادق، ولكن نُكذِّبُ ما جئتَ به؛ فنزلت^(٣) هذه الآية: «فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِبِغَايَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ» ثم أتته بقوله: «وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ» الآية. وقرئ «يُكَذِّبُونَكَ» مخففاً ومشدداً؛ قيل: هما بمعنى واحد كحزنته وأحزنته؛ واختار أبو عبيد قراءة التخفيف، وهي قراءة علي رضي الله عنه؛ وروى عنه أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئتَ به؛ فانزل الله عز وجل: «فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ». قال النحاس وقد خولف أبو عبيد في هذا. وروى: لا نُكذِّبُكَ. فانزل الله عز وجل: «فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ». ويقوي هذا أن رجلاً قرأ على ابن عباس «فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ» مخففاً فقال له ابن عباس «يُكَذِّبُونَكَ»؛ لأنهم كانوا يسمون النبي ﷺ: الأمين. ومعنى «يُكَذِّبُونَكَ» عند أهل اللغة

(١) صحيح: الترمذي (٢٣٢٠) في الزهد، وصححه الألباني هناك.

(٢) قراءة سبعة متواترة: تقريب النشر (ص ١٠٩).

(٣) مرسل: الواحدي (ص ١٧٨) في أسباب النزول، وأبو ميسرة هذا تابعي جليل.

ينسبونك إلى الكذب؛ ويردون عليك ما قلت. ومعنى ﴿لَا يَكْذِبُونَكَ﴾ أي: لا يجدونك تأتي بالكذب؛ كما تقول: أكذبت وجدته كذاباً، وأبخلته وجدته بخيلاً، أي: لا يجدونك كذاباً إن تدبروا ما جئت به. ويجوز أن يكون المعنى: لا يثبتون عليك أنك كاذب؛ لأنه يقال: أكذبت إذا احتججت عليه وبيّنت أنه كاذب. وعلى التشديد: لا يكذبونك بحجة ولا برهان؛ ودل على هذا ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيِّنَاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾. قال النحاس: والقول في هذا مذهب أبي عبيد، واحتجاجه لازم؛ لأن علياً كرم الله وجهه هو الذي روى الحديث، وقد صح عنه أنه قرأ بالتخفيف؛ وحكى الكسائي عن العرب: أكذبت الرجل إذا أخبرت أنه جاء بالكذب ورواه، وكذّبت إذا أخبرت أنه كاذب؛ وكذلك قال الزجاج: كذّبت إذا قلت له كذبت، وأكذبت إذا أردت أن ما أتى به كذب.

قوله تعالى: ﴿فَصَبِرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا﴾ أي: فاصبر كما صبروا. ﴿وَأَوْفُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ أي: عوننا، أي: فسيأتيك ما وعدت به. ﴿وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ مبين لذلك النصر؛ أي: ما وعد الله عز وجل به فلا يقدر أحد أن يدفعه؛ لا ناقض لحكمه، ولا خلف لوعده؛ و﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨] ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٥١] ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٧١] ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ [١٧٢] ﴿وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣] ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ﴾ فاعل ﴿جاءك﴾ مضمّر؛ المعنى: جاءك من نبي المرسلين نبأ.

﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي: عظم عليك إعراضهم وتوليهم عن الإيمان. ﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ﴾ قدرت ﴿أَنْ تَبْتَغِيَ﴾ تطلب ﴿نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سرباً تخلص منه إلى مكان آخر، ومنه النافقاء لبحر التبرّج، وقد تقدّم في «البقرة» بيان، ومنه المنافق وقد تقدّم. ﴿أَوْ سُلَّمًا﴾ معطوف عليه، أي: سبباً إلى السماء؛ وهذا تمثيل لأن السلم الذي يرتقى عليه سبب إلى الموضع، وهو مذكر، ولا يعرف ما حكاه الفراء من تأنيث السلم. قال قتادة: السلم الدرج. الزجاج: وهو مشتق من السلامة كأنه يسلمك إلى الموضع الذي تريد. ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بآيَةٍ﴾ عطف عليه أي: ليؤمنوا فافعل؛ فأضمّر الجواب لعلم السامع. أمر الله نبيه ﷺ ألا يشتدّ حزنه عليهم إذا كانوا لا يؤمنون؛ كما أنه لا يستطيع هداهم. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ أي: لخلقهم مؤمنين وطبعهم عليه؛ بين تعالى أن كفرهم بمشيئة الله رداً على القدرية. وقيل المعنى: أي: لأراهم آية تضطرهم إلى الإيمان، ولكنه أراد عز وجل أن يثيب منهم من آمن ومن أحسن. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: من الذين اشتدّ حزنهم وتحسروا حتى أخرجهم ذلك إلى الجزع الشديد، وإلى ما لا يحل؛ أي: لا تحزن على كفرهم فتقارب حال الجاهلين. وقيل: الخطاب له والمراد الأمة؛ فإن قلوب المسلمين كانت تضيق من كفرهم وإذابتهم.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَتِيمُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ رَجَعُونَ﴾ وَقَالُوا أَلَوْلَا نَزْلُ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي: سماع إصغاء وتفهم وإرادة الحق، وهم المؤمنون الذين يقبلون ما يسمعون فينتفعون به ويعملون؛ قال معناه الحسن ومجاهد، وتم الكلام. ثم قال: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ وهم الكفار؛ عن الحسن ومجاهد؛ أي: هم بمنزلة الموتى في أنهم لا يقبلون ولا يصغون إلى حجة. وقيل: الموتى كل من مات. ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: للحساب؛ وعلى الأول يبعثهم هدايتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله ﷺ. وعن الحسن: هو بعثهم من شركهم حتى يؤمنوا بك يا محمد يعني عند حضور الموت في حال الإلجاء في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ قال الحسن: ﴿لَوْلَا﴾ ها هنا بمعنى هلاً؛ وقال الشاعر:

تَعْدُونَ عَقْرَ النَّيْبِ أَفْضَلَ مَجْدِكُمْ بَنِي صَوْطَرَى لَوْلَا الْكَمِيِّ الْمُقَنَّعَا

وكان هذا منهم تعنتاً بعد ظهور البراهين؛ وإقامة الحجة بالقرآن الذي عجزوا أن يأتوا بسورة مثله، لما فيه من الوصف وعلم الغيوب. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون أن الله عز وجل إنما ينزل من الآيات ما فيه مصلحة لعباده؛ وكان في علم الله أن يخرج من أصلاهم أقواماً يؤمنون به ولم يرد استئصالهم. وقيل: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله قادر على إنزالها. الزجاج: طلبوا أن يجمعهم على الهدى أي: جمع إلجاء.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمِّرُ أَمْثَالُكُمْ مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ تقدّم معنى الدابة والقول فيه في «البقرة» وأصله الصفة؛ من دَبَّ يَدِبُّ فهو دابٌّ إذا مشى مشياً فيه تقارب خطو. ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ بخفض «طَائِرٍ» عطفاً على اللفظ.

وقرأ الحسن وعبدالله بن أبي إسحاق «وَلَا طَائِرٌ» بالرفع عطفاً على الموضع، و «مِنْ» زائدة التقدير: وما دابة. ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ تأكيد وإزالة للإبهام؛ فإن العرب تستعمل الطيران لغير الطائر، تقول للرجل: طَرَّ في حاجتي؛ أي: أسرع؛ فذكر «بِجَنَاحَيْهِ» ليتمحص القول في الطير، وهو في غيره مجاز. وقيل: إن اعتدال جسد الطائر بين الجناحين يعينه على الطيران، ولو كان غير معتدل لكان يميل؛ فاعلمنا أن الطيران بالجناحين و «مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ» [النحل: ٧٩] والجناح أحد ناحيتي الطير الذي يتمكن به من الطيران في الهواء، وأصله الميل إلى ناحية من النواحي؛ ومنه جَنَحَتِ السفينة إذا مالت إلى ناحية الأرض لاصقة بها فوقفت. وطائر الإنسان عمله؛ وفي التنزيل ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَتَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣] «إِلَّا أُمِّرُ أَمْثَالُكُمْ» أي: هم جماعات مثلكم في أن الله عز وجل خلقهم، وتكفل بأرزاقهم، وعدل عليهم، فلا ينبغي أن تظلموهم، ولا تجاوروا فيهم ما أمرتم به. و«دَابَّةٌ» تقع على جميع ما دبّ؛ وخص بالذكر ما في الأرض دون السماء لأنه الذي يعرفونه ويعاينونه. وقيل: هي أمثال لنا في التسبيح والدلالة؛ والمعنى: وما من دابة ولا طائر إلا وهو يسبح

الله تعالى، ويدل على وحدانيته لو تأمل الكفار. وقال أبو هريرة: هي أمثال لنا على معنى أنه يحشر البهائم غداً ويقتص للجماء من القرآن ثم يقول الله لها: كوني تراباً^(١). وهذا اختيار الزجاج فإنه قال: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ في الخلق والرزق والموت والبعث والاقتصاص، وقد دخل فيه معنى القول الأول أيضاً. وقال سفيان بن عيينة: أي: ما من صنف من الدواب والطيور إلا في الناس شبه منه؛ فمنهم من يعدو كالأسد، ومنهم من يشتره كالخنزير، ومنهم من يعوي كالكلب، ومنهم من يزهو كالطاوس؛ فهذا معنى المائلة. واستحسن الخطابي هذا وقال: فإنك تعاشر البهائم والسباع فخذ حذرك. وقال مجاهد في قوله عز وجل: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ قال: أصناف لهن أسماء تُعرف بها كما تُعرفون. وقيل غير هذا مما لا يصح من أنها مثلنا في المعرفة، وأنها تُحشر وتنعم في الجنة، وتعرض من الآلام التي حلت بها في الدنيا وأن أهل الجنة يستأنسون بصورهم؛ والصحيح ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ في كونها مخلوقة دالة على الصانع محتاجة إليه مرزوقة من جهته، كما أن رزقكم على الله. وقول سفيان أيضاً حسن؛ فإنه تشبيه واقع في الوجود.

قوله تعالى: ﴿مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: في اللوح المحفوظ فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث. وقيل: أي: في القرآن أي: ما تركنا شيئاً من أمر الدين إلا وقد دَلَّلْنَا عليه في القرآن؛ إما دلالة مبينة مشروحة، وإما مجملة يُتَلَقَّى ببيانها من الرسول عليه الصلاة والسلام، أو من الإجماع، أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب؛ قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] فأجعل في هذه الآية وآية «النحل» ما لم ينص عليه مما لم يذكره، فصدق خبر الله بأنه ما فرط في الكتاب من شيء إلا ذكره إما تفصيلاً وإما تأصيلاً؛ وقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي: للجزاء، كما سبق في خبر أبي هريرة، وفي صحيح مسلم عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَتُؤَدَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجُلحاء من الشاة القرناء»^(٢). ودل بهذا على أن البهائم تحشر يوم القيامة؛ وهذا قول أبي ذر وأبي هريرة^(٣) والحسن وغيرهم، وروى عن ابن عباس؛ قال ابن عباس في رواية: حشر الدواب والطيور موتها؛ وقاله الضحاك؛ والأول أصح لظاهر الآية والخبر الصحيح، وفي التنزيل ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥] وقول أبي هريرة فيما روى جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عنه: يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة، البهائم والدواب والطيور وكل شيء؛ فيبلغ من عدل الله تعالى يومئذ أن يأخذ للجماء من

(١) حسن: الطبري (٧/ ٢٠٠) في تفسيره، والحاكم (٢/ ٣٤٥) في المستدرک، وفيه جعفر بن برقان: صدوق بهم في حديث الزهري ورواه هنا عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: مسلم (٢٥٨٢) في البر والصلة.

والجلحاء: التي لا قرن لها. النهاية (١/ ٢٨٤) لابن الأثير.

ويُقاد: يقتص من القود.

(٣) كذا عند الطبري (٧/ ٢٠٠) في تفسيره.

القرناء ثم يقول: «كُونِي تُرَابًا» فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠] وقال عطاء: فإذا رأوا بني آدم وما هم عليه من الجَزَعِ قلن: الحمد لله الذي لم يجعلنا مثلكم، فلا جنة نرجو ولا نار نخاف؛ فيقول الله تعالى لهن: «كُنْ تُرَابًا» فحينئذ يتمنى الكافر أن يكون تُرَابًا. وقالت جماعة: هذا الحشر الذي في الآية يرجع إلى الكفار وما تَخَلَّلَ كلامٌ معترضٌ وإقامةٌ حُجج؛ وأما الحديث فالمقصود منه التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص والاعتناء فيه حتى يفهم منه أنه لا بد لكل أحد منه، وأنه لا محيص له عنه؛ وعضدوا هذا بما في الحديث في غير الصحيح عن بعض رواته من الزيادة فقال: حتى يُقاد للشاة الجُلحاء من القُرناء، وللحجر لما ركب على الحجر، وللعود لما خُدش العود: قالوا: فظهر من هذا أنَّ المقصود منه التمثيل المفيد للاعتبار والتهويل، لأن الجمادات لا يُعقل خطابها ولا ثوابها ولا عقابها، ولم يصر إليه أحد من العقلاء، ومتخيلة من جملة المعتوهين الأغبياء؛ قالوا: ولأن القلم لا يجري عليهم فلا يجوز أن يؤاخذوا.

قلت: الصحيح القول الأول لما ذكرناه من حديث أبي هريرة، وإن كان القلم لا يجري عليهم في الأحكام ولكن فيما بينهم يؤاخذون به؛ وروي عن أبي ذر قال: انتطحت شاتان عند النبي ﷺ فقال: «يا أبا ذر هل تدري فيما انتطحتا؟» قلت: لا. قال: «لكن الله تعالى يدري وسيقضي بينهما»^(١) وهذا نص، وقد زدناه بياناً في كتاب «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة». والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُمْ وَبُكِّمُ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَاءُ اللَّهُ يَضِلُّهُ وَمَن يَشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَاكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ٦ بَلْ إِنَّمَا تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا فَتَرْتُمُونَ ٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُمْ وَبُكِّمُ﴾ ابتداء وخبر، أي: عديموا الانتفاع بأسماعهم وأبصارهم؛ فكل أمة من الدواب وغيرها تهتدي لمصالحها والكفار لا يهتدون؛ وقد تقدّم في «البقرة». ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: ظلمات الكفر. وقال أبو علي: يجوز أن يكون المعنى «صُمْ وَبُكِّمُ» في الآخرة؛ فيكون حقيقة دون مجاز اللغة. «مَن يَشَاءُ اللَّهُ يَضِلُّهُ» دلّ على أنه شاء ضلال الكافر وأراد أن لينفذ فيه عدله؛ ألا ترى أنه قال: «وَمَن يَشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» أي: على دين الإسلام لينفذ فيه فضله. وفيه إبطال لمذهب القدرية. والمشيئة راجعة إلى الذين كذبوا، فمنهم من يضلّه ومنهم من يهديه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ وقرأ نافع بتخفيف الهمزتين، يلقي حركة الأولى على ما قبلها، ويأتي بالثانية بينَ بَيْنَ. وحكى أبو عبيد عنه أنه يسقط الهمزة ويعوض منها ألفاً. قال النحاس: وهذا عند أهل العربية غلط عليه؛ لأن الياء ساكنة والألف ساكنة ولا يجتمع ساكنان. قال مكّي: وقد روي عن ورش أنه أبدل من الهمزة ألفاً؛ لأن الرواية عنه أنه يمدّ الثانية، والمد لا يتمكن إلاّ مع البدل، والبدل فرع عن الأصول، والأصل أن تجعل الهمزة بين الهمزة المفتوحة والألف؛ وعليه كل من خفف

(١) حسن: الطيالسي (٤٨٠) في مسنده عن شعبة عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر، ورواه أحمد (١٦٢/٥) وفي إسناده جهالة، والرواية الأولى تشهد له.

الثانية غير وَرْش؛ وحسن جواز البدل في الهمزة وبعدها ساكن لأن الأول حرف مدّ ولين، فالمدّ الذي يحدث مع الساكن يقوم مقام حركة يوصل بها إلى النطق بالساكن الثاني .
وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمة ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ بتحقيق الهمزتين وأتوا بالكلمة على أصلها، والأصل الهمز؛ لأن همزة الاستفهام دخلت على «أريت» فالهمزة عين الفعل، والياء ساكنة لاتصال المضمّر المرفوع بها.

وقرأ عيسى بن عمر والكسائي «أَرَأَيْتُمْ» بحذف الهمزة الثانية. قال النحاس: هذا بعيد في العربية، وإنما يجوز في الشعر؛ والعرب تقول: أَرَأَيْتَكَ زيداً ما شأنه. ومذهب البصريين أن الكاف والميم للخطاب، لاحظ لهما في الإعراب؛ وهو اختيار الزجاج. ومذهب الكسائي والفراء وغيرهما أن الكاف والميم نصب بوقوع الرؤية عليهما، والمعنى أَرَأَيْتُمْ أَنْفُسَكُمْ؛ فإذا كانت للخطاب زائدة للتأكيد كان «إن» من قوله «إِنْ أَنْتُمْ» في موضع نصب على المفعول لأريت، وإذا كان اسماً في موضع نصب فـ «إن» في موضع المفعول الثاني؛ فالأول من رؤية العين لتعديها لمفعول واحد، وبمعنى العلم تتعدى إلى مفعولين. وقوله: ﴿أَوَأَنْتُمْ السَّاعَةُ﴾ المعنى: أو أنتمكم الساعة التي تبعثون فيها. ثم قال: ﴿أَغْمِرُ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ والآية في محاجة المشركين ممن اعترف أن له صانعاً؛ أي: أنتم عند الشدائد ترجعون إلى الله، وسترجعون إليه يوم القيامة أيضاً فلم تصرّون على الشرك في حال الرفاهية؟ وكانوا يعبدون الأصنام ويدعون الله في صرف العذاب.

قوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ ﴿بَلْ﴾ إضراب عن الأول وإيجاب للثاني. «إياه» نصب بـ «تدعون» ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ أي: يكشف الضر الذي تدعون إلى كشفه إن شاء كشفه. ﴿وَتَسْأَلُونَ مَا تُنْشِرُكُمْ﴾ قيل: عند نزول العذاب. وقال الحسن: أي: تعرضون عنه إعراض الناسي، وذلك لليأس من النجاة من قبله إذ لا ضرر فيه ولا نفع. وقال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى وتتركون. قال النحاس: مثل قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فِئْسٍ﴾ [طه: ١١٥].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية تسليّة للنبي ﷺ، وفيه إضمار؛ أي: أرسلنا إلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ رسلاً، وفيه إضمار آخر يدل عليه الظاهر؛ تقديره: فكذبوا فأخذناهم. وهذه الآية متصلة بما قبل اتصال الحال بحال قرية منها؛ وذلك أن هؤلاء سلّكوا في مخالفة نبيهم مسلّك من كان قبلهم في مخالفة أنبيائهم، فكانوا بعرض أن ينزل بهم من البلاء ما نزل بمن كان قبلهم. ومعنى ﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾ بالمصائب في الأموال ﴿وَالضَّرَاءِ﴾ في الأبدان؛ هذا قول الأكثر، وقد يوضع كل واحد منهما موضع الآخر؛ ويؤدّب الله عباده بالْبَأْسَاءِ والضَّرَاءِ وبما شاء ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾. قال ابن عطية: استدلل العباد في تأديب أنفسهم بالْبَأْسَاءِ في تفريق الأموال، والضَّرَاءِ في الحمل على الأبدان بالجوع والعري بهذه الآية.

قلت: هذه جهالة ممن فعلها وجعل هذه الآية أصلاً لها؛ هذه عقوبة من السلّه لمن شاء من عباده أن يمتحنهم بها، ولا يجوز لنا أن نمتحن أنفسنا ونكافئها قياساً عليها؛ فإنها المطية التي نبلي عليها دار

الكرامة، ونفوز بها من أهوال يوم القيامة؛ وفي التنزيل ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٧] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] فأمر المؤمنين بما خاطب به المرسلين؛ وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يأكلون الطيبات ويلبسون أحسن الثياب ويتجملون بها؛ وكذلك التابعون بعدهم إلى هلم جرا، على ما تقدّم بيانه في «المائدة» وسيأتي في «الأعراف» من حكم اللباس وغيره؛ ولو كان كما زعموا واستدلوا لما كان في امتنان الله تعالى بالزروع والجنات وجميع الثمار والنبات والآنعام التي سخرها وأباح لنا أكلها وشرب ألبانها والدفء بأصوافها إلى غير ذلك مما امتن به كبير فائدة، فلو كان ما ذهبوا إليه فيه الفضل لكان أولى به رسول الله ﷺ وأصحابه ومن بعدهم من التابعين والعلماء، وقد تقدّم في آخر «البقرة» بيان فضل المال ومنفعته والردّ على من آبى من جمعه؛ وقد نهى النبي ﷺ عن الوصال (١) مخافة الضعف على الأبدان، ونهى عن إضاعة المال (٢) ردّاً على الأغنياء الجهال.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: يدعون ويدلّون، مأخوذ من الضراعة وهي الذلة؛ يُقال: ضَرَعَ فهو ضارع.

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ «لولا» تخضيس، وهي التي تلي الفعل بمعنى هلاً؛ وهذا عتاب على ترك الدعاء، وإخبار عنهم أنهم لم يتضرّعوا حين نزول العذاب. ويجوز أن يكونوا تضرّعوا تضرّع من لم يُخلص، أو تضرّعوا حين لا يسهم العذاب، والتضرّع على هذه الوجوه غير نافع. والدعاء مأمور به حال الرخاء والشدة؛ قال الله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أي: دعائي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] وهذا وعيد شديد. ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: صلبت وغلظت؛ وهي عبارة عن الكفر والإصرار على المعصية، نسأل الله العافية. ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: أغواهم بالمعاصي وحملهم عليها.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يُقال: لم ذموا على النسيان وليس من فعلهم؟ فالجواب أن «نسوا» بمعنى تركوا ما ذكروا به، عن ابن عباس وابن جرير، وهو قول أبي علي؛ وذلك لأن التارك للشيء إعراضاً عنه قد صيره بمنزلة ما قد نسي، كما يقال: تركه. في النسي. جواب آخر وهو أنهم تعرضوا للنسيان فجاز الذمّ لذلك؛ كما جاز الذمّ على التعرّض لسخط الله عزّ وجلّ وعقابه. ومعنى «فتفتحنا عليهم أبواب كل شيء» أي: من النعم والخيرات، أي: كثرنا لهم ذلك. والتقدير عند

(١) متفق عليه: وقد سبق.

(٢) سبق عن المغيرة بن شعبه رضي الله عنه.

أهل العربية: فتحنا عليهم أبواب كل شيء كان مغلقاً عنهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ معناه بطروا وأشروا وأعجبوا وظنوا أن ذلك العطاء لا يبدي، وأنه دال على رضاء الله عز وجل عنهم ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ أي: استأصلناهم وسطونا بهم. و «بَغْتَةً» معناه فجأة، وهي الأخذ على غرة ومن غير تقدم أمانة؛ فإذا أخذ الإنسان وهو غار غافل فقد أخذ بغتة، وأنكى شيء ما يفجأ من البغت. وقد قيل: إن التذكير الذي سلف فأعرضوا عنه قام مقام الأمانة. والله أعلم. و «بَغْتَةً» مصدر في موضع الحال لا يقاس عليه عند سيبويه كما تقدم؛ فكان ذلك استدراجاً من الله تعالى كما قال: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٥] نعوذ بالله من سخطه ومكره. قال بعض العلماء: رحم الله عبداً تدبر هذه الآية ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾. وقال محمد بن النصر الحارثي: أمهل هؤلاء القوم عشرين سنة. وروى عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتم الله تعالى يعطي العباد ما يشاؤون على معاصيهم فإنما ذلك استدراج منه لهم» ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ (١) الآية كلها. وقال الحسن: والله ما أحد من الناس بسط الله له في الدنيا فلم يخف أن يكون قد مكر له فيها إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه. وما أمسكها الله عن عبد فلم يظن أنه خير له فيها إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه. وفي الخبر أن الله تعالى أوحى إلى موسى ﷺ: «إذا رأيت الفقر مقبلاً إليك فقل مرحباً بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلاً إليك فقل ذنب عجلت عقوبته» (٢).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ المبلس الباهت الحزين الآيس من الخير الذي لا يحير جواباً لشدة ما نزل به من سوء الحال؛ قال العجاج:

يَا صَاحِبَ هَل تَعْرِفُ رَسْمًا مُكْرَسًا قَالَ نَعَمْ أَعْرِفُهُ وَأَبْلَسًا

أي: تخير لهول ما رأى، ومن ذلك اشتق اسم إبليس؛ أبلس الرجل سكّت، وأبلسَت الناقة وهي مبلّس إذا لم ترع من شدة الضبعة؛ ضبعت الناقة تضبع ضبعةً وضبعا إذا أرادت الفحل. قوله تعالى: ﴿فَقَطِّعْ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الدابر الآخر؛ يقال: دبّر القوم يدبّرهم دبراً إذا كان آخرهم في المجيء. وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود: «من الناس من لا يأتي الصلاة إلا دبّرياً» (٣) أي: في آخر الوقت؛ والمعنى هنا قطع حلصهم من نسلهم وغيرهم فلم تبق لهم باقية. قال فطرب: يعني أنهم استؤصلوا وأهلكوا. قال أمية بن أبي الصلت:

فَأَهْلَكُوا بِعَذَابِ حَصِّ دَائِرِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ صَرْفًا وَلَا انْتَصَرُ

ومنه التدبير لأنه احكام عواقب الأمور. ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قيل: على هلاكهم، وقيل: تعليم للمؤمنين كيف يحمدونه. وتضمنت هذه الآية الحجة على وجوب ترك الظلم؛ لما يعقب من قطع الدابر، إلى العذاب الدائم، مع استحقاق القاطع الحمد من كل حامد.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَرَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِنَ إِلَهٍ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظَرُ

(١) صحيح: أحمد (٤/ ١٤٥) في المسند، والطبري (٧/ ٢٠٦) في تفسيره، وصححه الالباني (٥٦١) في صحيح الجامع.

(٢) خبر من الإسرائيليات لا يصدق ولا يكذب.

(٣) ذكره ابن الأثير (٢/ ٩٧) في النهاية.

كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ يُرِيدُونَ ﴿٣٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ أي: أذهب وانتزع. ووحده ﴿سَمْعَكُمْ﴾ لأنه مصدر يدل على الجمع. ﴿وَحْتَمَ﴾ أي: طبع، وقد تقدم في «البقرة». وجواب «إِنْ» محذوف تقديره: فمن يأتيكم به، وموضعه نصب؛ لأنها في موضع الحال، كقولك: اضربه إن خرج أي: خارجاً. ثم قيل: المراد المعاني القائمة بهذه الجوارح، وقد يذهب الله الجوارح والأعراض جميعاً فلا يبقى شيئاً، قال الله تعالى: ﴿مَنْ قَبْلُ أَنْ نُنْظِمَ وَجُوهَهَا﴾ [النساء: ٤٧] والآية احتجاج على الكفار. ﴿مَنْ إِلَّا غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ «من» رفع بالابتداء وخبرها «إله» و «غيره» صفة له، وكذلك «يَأْتِيكُمْ» موضعه رفع بأنه صفة «إله» ومخرجها مخرج الاستفهام، والجملة التي هي منها في موضع مفعولي رأيتم. ومعنى «أَرَأَيْتُمْ». علمتم وحّد الضمير في «بِهِ» وقد تقدم الذكر بالجمع لأن المعنى أي: بالماخوذ فالفاء راجعة إلى المذكور. وقيل: على السمع بالتصريح؛ مثل قوله: «وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرَٰضَوْهُ» [التوبة: ٦٢] ودخلت الأبصار والقلوب بدلالة التضمن. وقيل: ﴿مَنْ إِلَّا غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ﴾ بأحد هذه المذكورات. وقيل: على الهدى الذي تضمنه المعنى.

وقرأ عبد الرحمن الأعرج «بِهِ أَنْظُرُ» بضم الهاء على الأصل؛ لأن الأصل أن تكون الهاء مضمومة كما تقول: جئت معه. قال النقاش: في هذه الآية دليل على تفضيل السمع على البصر لتقدمته هنا وفي غير آية، وقد مضى هذا في أول «البقرة» مستوفى. وتصريف الآيات الإتيان بها من جهات؛ من إعدار وإنذار وترغيب وترهيب ونحو ذلك. ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ﴾ أي: يعرضون. عن ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والسدي: يُصَدَّفُ: صدف عن الشيء إذا عرض عنه صدفاً وصدوفاً فهو صادفٌ. وصادفته مصادفة أي: لقيته عن إعراض عن جهته؛ قال ابن الرقاع:

إِذَا ذَكَرَنَ حَدِيثاً قُلْنَ أَحْسَنَهُ وَهُنَّ عَنْ كُلِّ سَوْءٍ يَتَقَى صُدْفُ

والصَّدَفُ في البعير أن يميل خُفَّهُ من اليد أو الرجل إلى الجانب الوحشي؛ فهم يصدفون، أي:

ماثلون معرضون عن الحجج والدلالات.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ الحسن: ﴿بَغْتَةً﴾ ليلاً ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ نهاراً. وقيل: بغتة فجأة. وقال الكسائي: يُقَالُ بَغْتَهُمُ الْأَمْرُ يُبَغْتُهُمْ بَغْتاً وبغتة إذا أتاهم فجأة، وقد تقدم. ﴿هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ نظيره ﴿هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ [الاحقاف: ٣٥] أي: هل يهلك إلا أنتم لشرككم؛ والظلم هنا بمعنى الشرك، كما قال لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ۖ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ أي: بالترغيب والترهيب. قال الحسن:

مبشرين بسعة الرزق في الدنيا والثواب في الآخرة؛ يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] ومعنى ﴿مُنذِرِينَ﴾ مخوفين عقاب الله؛ فالمعنى: إنما أرسلنا المرسلين لهذا لا لما يقترح عليهم من الآيات، وإنما يأتون من الآيات بما تظهر معه براهينهم وصدقهم. وقوله: ﴿فَمَن أَمِنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ تقدم القول فيه.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَسْتَهْمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: بالقرآن والمعجزات. وقيل: بمحمد عليه الصلاة والسلام. ﴿يَسْتَهْمُ الْعَذَابُ﴾ أي: يصيبهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: يكفرون.

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ هذا جواب لقولهم: ﴿لَوْ أَنزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ فالمعنى ليس عندي خزائن قدرته فأنزل ما اقترحتموه من الآيات، ولا أعلم الغيب فأخبركم به. والخزانة ما يُخزَن فيه الشيء؛ ومنه الحديث: «فإنما تَخْزَنُ لهم ضرورُ مواشيهم أطعماتهم أيح أحدهم أن تؤتى مشربته فتكسر خزانته»^(١). وخزائن الله مقدراته؛ أي: لا أملك أن أفعل كل ما أريد مما تقترحون ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أيضاً ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ وكان القوم يشوهمون أن الملائكة أفضل، أي: لست بملك فأشاهد من أمور الله ما لا يشهده البشر. واستدل بهذا القائلون بأن الملائكة أفضل من الأنبياء. وقد مضى في «البقرة» القول فيه فتأمله هناك.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ ظاهره أنه لا يقطع أمراً إلا إذا كان فيه وحي. والصحيح أن الأنبياء يجوز منهم الاجتهاد، والقياس على المنصوص، والقياس أحد أدلة الشرع. وسيأتي بيان هذا في «الأعراف» وجواز اجتهاد الأنبياء في «الأنبياء» إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ أي: الكافر والمؤمن؛ عن مجاهد وغيره. وقيل: الجاهل والعالم. ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أنهما لا يستويان.

﴿وَأَنْذِرِ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّنْ دُونِهِ إِلَهٌ وَلَا شَفِيعٌ عَلَيْهِمْ يَتَّقُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ﴾ أي: بالقرآن. والإنذار الإعلام وقد تقدم في «البقرة». وقيل: ﴿بِهِ﴾ أي: بالله. وقيل: باليوم الآخر. وخص ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ أَنْ يُخْشَرُوا﴾ لأن الحجة عليهم أوجب، فهم خائفون من عذابه، لا أنهم يترددون في الحشر؛ فالمعنى ﴿يَخْشَوْنَ﴾ يتوقعون عذاب الحشر. وقيل: ﴿يَخْشَوْنَ﴾ يعلمون، فإن كان مسلماً أنذر لترك المعاصي، وإن كان من أهل الكتاب أنذر ليتبع الحق.

(١) متفق عليه: البخاري (٢٤٣٥) في اللقطة، ومسلم (١٧٢٦) في اللقطة عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وقال الحسن: المراد المؤمنون. قال الزجاج: كل من أقر بالبعث من مؤمن وكافر. وقيل: الآية في المشركين أي. أئذهم بيوم القيامة. والأول أظهر. ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من غير الله ﴿شَفِيعٌ﴾ هذا رد على اليهود والنصارى في زعمهما أن أباهما يشفع لهما حيث قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ والمشركون حيث جعلوا أصنامهم شفعاء لهم عند الله، فأعلم الله أن الشفاعة لا تكون للكفار. ومن قال الآية في المؤمنين قال: شفاعة الرسول لهم تكون بإذن الله فهو الشفيع حقيقة إذن؛ وفي التنزيل: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢٨] ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣] ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: في المستقبل، وهو الثبات على الإيمان.

﴿وَلَا تَطْرُدُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الآية. قال المشركون: ولا نرضى بمجالسة أمثال هؤلاء يعنون سلمان وصهيباً وبلالاً وخباباً فاطردهم عنك؛ وطلبوا أن يكتب لهم بذلك، فهم النبي ﷺ بذلك، ودعا علياً ليكتب؛ فقام الفقراء وجلسوا ناحية؛ فأنزل الله الآية. ولهذا أشار سعد بقوله في الحديث الصحيح: فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع؛ وسيأتي ذكره. وكان النبي ﷺ إنما مال إلى ذلك طمعاً في إسلامهم، وإسلام قومهم، ورأى أن ذلك لا يفوت أصحابه شيئاً، ولا ينقص لهم قدراً، فمال إليه فأنزل الله الآية، فنهاء عما هم به من الطرد لا أنه أوقع الطرد.

روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرده هؤلاء عنك لا يجترئون علينا؛ قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (١). قيل: المراد بالدعاء المحافظة على الصلاة المكتوبة في الجماعة؛ قاله ابن عباس ومجاهد والحسن. وقيل: الذكر وقراءة القرآن. ويحتمل أن يريد الدعاء في أول النهار وآخره؛ ليستفتحوا يومهم بالدعاء رغبة في التوفيق، ويختتموه بالدعاء طلباً للمغفرة. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: طاعته، والإخلاص فيها، أي: يخلصون في عبادتهم وأعمالهم لله، ويتوجهون بذلك إليه لا لغيره. وقيل: يريدون الله الموصوف بأن له الوجه كما قال: ﴿وَيَقْنِي وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] وهو كقوله: ﴿وَالَّذِينَ هَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٢٢] وخص الغداة والعشي بالذكر؛ لأن الشغل غالب فيهما على الناس، ومن كان في وقت الشغل مقبلاً على العبادة كان في وقت الفراغ من الشغل أعمل. وكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يصبر نفسه معهم كما أمره الله في قوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨] فكان لا يقوم حتى يكونوا هم الذين يبتدئون القيام، وقد أخرج هذا المعنى مبيئاً

(١) صحيح: مسلم (٢٤١٤) في فضائل الصحابة.

مكملًا ابن ماجه في سننه عن خَبَاب في قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري فوجدوا رسول الله ﷺ مع صُهَيْب وبلال وعمار وخَبَاب، قاعدًا في ناس من الضعفاء من المؤمنين؛ فلما رأوهم حول النبي ﷺ حَقَرُوهم؛ فأتوه فخلوا به وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسًا نعرفُ لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترائنا العرب مع هذه الأعبُد. فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت؛ قال: «نعم» قالوا: فاكتب لنا عليك كتابًا؛ قال: فدعا بصحيفة ودعا عليًّا رضي الله عنه ليكتب ونحن قعود في ناحية؛ فنزل جبريل عليه السلام فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ثم ذكر الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن؛ فقال: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] ثم قال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] قال: فلدنونا منه حتى وضعنا رُكْبَنَا على رُكْبَتِهِ؛ وكان رسول الله ﷺ يجلس معنا فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا؛ فأنزل الله عز وجل ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ولا تجالس الأشراف ﴿وَلَا تَطْعُ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ يعني عَيْنَتَهُ والأقرع ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] أي: هلاكًا قال: أمر عَيْنَتَهُ والأقرع؛ ثم ضرب لهم مثل الرجلين ومثل الحياة الدنيا. قال خَبَاب: فكنا نقعد مع النبي ﷺ فإذا بلغنا الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم^(١)؛ رواه عن أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان حدثنا عمرو بن محمد العنقري حدثنا أسباط عن السدي عن أبي سعيد الأزدي وكان قارئ الأزدي عن أبي الكنود عن خَبَاب؛ وأخرجه أيضاً عن سعد قال: نزلت هذه الآية فينا ستة، في وفي ابن مسعود وصُهَيْب وعمار والمقداد وبلال؛ قال: قالت قريش لرسول الله ﷺ إنا لا نرضى أن نكون أتباعاً لهم فاطردهم، قال: فدخل قلب رسول الله ﷺ من ذلك ما شاء الله أن يدخل؛ فأنزل الله عز وجل^(٢) ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ الآية. وقرئ «بِالْغُدُوَّةِ» وسيأتي بيانه في «الكهف» إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: من جزائهم ولا كفاية أرزاقهم، أي: جزاؤهم ورزقهم على الله، وجزاؤك ورزقك على الله لا على غيره. «من» الأولى للتبعيض، والثانية زائدة للتوكيد. وكذا ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ المعنى وإذا كان الأمر كذلك فأقبل عليهم وجالسهم ولا تطردهم مراعاة لحق من ليس على مثل حالهم في الدين والفضل؛ فإن فعلت كنت ظالماً. وحاشاه من وقوع ذلك منه، وإنما هذا بيان للأحكام، ولثلا يقع مثل ذلك من غيره من أهل السلام؛ وهذا مثل قوله: ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وقد علم الله منه أنه لا يُشْرِكُ ولا يحبط عمله.

(١) صحيح: ابن ماجه (٤١٢٧) في الزهد، والطبري (٧/ ٢١٢) في تفسيره، وصححه الألباني رحمه الله تعالى.

(٢) صحيح: وقد سبق.

﴿فَطَرَدُوهُمْ﴾ جواب النفي. ﴿فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ نصب بالفاء في جواب النهي؛ المعنى: ولا تطرد الذين يدعون ربهم فتكون من الظالمين، وما من حسابك عليهم من شيء فطردوهم، على التقديم والتأخير. والظلم أصله وضع الشيء في غير موضعه؛ وقد تقدّم في «البقرة» مستوفى. وقد حصل من قوة الآية والحديث النهي عن أن يعظم أحد لجاهه ولثوبه، وعن أن يحتقر أحد لحموله ولرثائه ثوبه.

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِثْلُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ يَبِينُ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: كما فتنا من قبلك كذلك فتنا هؤلاء. والفتنة الاختبار؛ أي: عاملناهم معاملة المختبرين. ﴿لِّيَقُولُوا﴾ نصب بلام كي، يعني الأشراف والأغنياء. ﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ يعني الضعفاء والفقراء. ﴿مِثْلُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ قال النحاس: وهذا من المشكل؛ لأنه يقال: كيف فتنا ليقولوا هذه الآية؟ لأنه إن كان إنكاراً فهو كفر منهم.

وفي هذا جوابان: أحدهما أن المعنى اختبر الأغنياء بالفقراء أن تكون مرتبتهم واحدة عند النبي ﷺ، ليقولوا على سبيل الاستفهام لا على سبيل الإنكار: ﴿أَهَؤُلَاءِ مِثْلُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾.

والجواب الآخر أنهم لما اختبروا بهذا فال عاقبته إلى أن قالوا هذا على سبيل الإنكار، وصار مثل قوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرًّا﴾ [الفصل: ٨] ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ فيمن عليهم بالإيمان دون الرؤساء الذين علم الله منهم الكفر وهذا استفهام تقرير وهو جواب لقولهم: ﴿أَهَؤُلَاءِ مِثْلُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقيل: المعنى أليس الله بأعلم من يشكر الإسلام إذا هدته إليه.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مِمَّنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سَوْءًا يَجْهَلِكُهُ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ السلام والسلامة بمعنى واحد. ومعنى ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ سلمكم الله في دينكم وأنفسكم؛ نزلت في الذين نهى الله نبيه عليه الصلاة والسلام عن طردهم؛ فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام»^(١) فعلى هذا كان السلام من جهة النبي ﷺ. وقيل: إنه كان من جهة الله تعالى، أي: أبلغهم منا السلام؛ وعلى الوجهين ففيه دليل على فضلهم ومكانتهم عند الله تعالى. وفي صحيح مسلم عن عائذ بن عمرو: أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال ونفر فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها؛ قال فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال: «يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك»

(١) ضعيف: الواحدي (ص ١٨٠) بلا سند في أسباب النزول.

فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوانه أغضببتكم؟ قالوا: لا؛ يغفر الله لك يا أخي (١)؛ فهذا دليل على رفعة منازلهم وحرمتهم كما بيناه في معنى الآية. ويستفاد من هذا احترام الصالحين واجتناب ما يغضبهم أو يؤذيهم؛ فإن في ذلك غضب الله، أي: حلول عقابه بمن آذى أحداً من أوليائه. وقال ابن عباس: نزلت الآية في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم. وقال الفضيل بن عياض: جاء قوم من المسلمين إلى النبي ﷺ فقالوا: إنا قد أصبنا من الذنوب فاستغفر لنا فأعرض عنهم؛ فنزلت الآية (٢). وروي عن أنس بن مالك مثله سواء.

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي: أوجب ذلك بخبره الصدق، ووعد الحق، فخطب العباد على ما يعرفونه من أنه من كتب شيئاً فقد أوجب عليه نفسه. وقيل: كتب ذلك في اللوح المحفوظ. ﴿أَنَّهُ مِنْ عَمَلٍ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ أي: خطيئة من غير قصد؛ قال مجاهد: لا يعلم حلالاً من حرام ومن جهالة ركب الأمر، فكل من عمل خطيئة فهو بها جاهل؛ وقد مضى هذا المعنى في «النساء». وقيل: من أثر العاجل على الآخرة فهو الجاهل. ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قرأ بفتح «أَنْ» من ﴿فَأَنَّهُ﴾ ابن عامر وعاصم، وكذلك ﴿أَنَّهُ مِنْ عَمَلٍ﴾ ووافقهما نافع في ﴿أَنَّهُ مِنْ عَمَلٍ﴾. وقرأ الباقون بالكسر فيهما؛ فمن كسر فعلى الاستئناف، والجملة مفسرة للرحمة؛ و «إِنْ» إذا دخلت على الجمل كُسرَتْ وحكم ما بعد الفاء الابتداء والاستئناف فكُسرَتْ لذلك. ومن فتحهما فالأولى في موضع نصب على البدل من الرحمة، بدل الشيء من الشيء وهو هو فأعمل فيها ﴿كُتِبَ﴾ كأنه قال: كتب ربكم على نفسه أنه من عمل؛ وأما ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ﴾ بالفتح ففيه وجهان: أحدهما أن يكون في موضع رفع بالابتداء والخبر مضمَر، كأنه قال: فله أنه غفور رحيم؛ لأن ما بعد الفاء مبتدأ، أي: فله غفران الله. الوجه الثاني أن يضمّر مبتدأ تكون «أَنْ» وما عملت فيه خبره؛ تقديره فأمره غفران الله له، وهذا اختيار سيبويه، ولم يُجَزِ الأول، وأجازه أبو حاتم وقيل: إِنْ ﴿كُتِبَ﴾ عمل فيها؛ أي: كتب ربكم أنه غفور رحيم. وروي عن علي بن صالح وابن هُرَيم كسر الأولى على الاستئناف، وفتح الثانية على أن تكون مبتدأة أو خبر مبتدأ أو معمولة لكتب على ما تقدّم. ومن فتح الأولى وهو نافع جعلها بدلاً من الرحمة، واستأنف الثانية لأنها بعد الفاء، وهي قراءة بيّنة.

﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ أَلْبَسُوا﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ﴾ التفسير التبيين الذي تظهر به المعاني؛ والمعنى؛ وكما فصلنا لك في هذه السورة دلائلنا ومحاجتنا مع المشركين كذلك نُفَصِّلُ لكم الآيات في كل ما تحتاجون إليه من أمر الدين، ونبين لكم أدلتنا وحججنا في كل حق ينكره أهل الباطل. وقال القُتَيْبِيُّ: ﴿نَقُصِّلُ الْآيَاتِ﴾ نأتي بها شيئاً بعد شيء، ولا نزلها جملة متصلة. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ يُقال: هذه اللام تتعلق بالفعل فأين الفعل الذي تتعلق به؟ فقال الكوفيون: هو مقدّر؛ أي: وكذلك نُفَصِّلُ الْآيَاتِ

(١) صحيح: مسلم (٢٥٠٤) في فضائل الصحابة.

(٢) ضعيف: الواحدي (ص ١٨٠) في أسباب النزول عن ماهان الحنفي معضلاً، وذكره ابن عطية عن الفضيل

(٥/ ٢١٣) في تفسيره.

لنبيين لكم ولتستبين؛ قال النحاس: وهذا الحذف كله لا يحتاج إليه، والتقدير: وكذلك نفصل الآيات فصلناها. وقيل: إن دخول الواو للعطف على المعنى؛ أي: ليظهر الحق وليستبين، قرئ بالياء والتاء. ﴿سَبِيلٌ﴾ برفع اللام ونصبها، وقراءة التاء خطاب للنبي ﷺ، أي: ولتستبين يا محمد سبيل المجزمين. فإن قيل: فقد كان النبي عليه السلام يستبينها؟ فالجواب عند الزجاج أن الخطاب للنبي عليه السلام خطاب لأمته؛ فالمعنى: ولتستبينوا سبيل المجزمين. فإن قيل: فلم لم يذكر سبيل المؤمنين؟ ففي هذا جوابان؛ أحدهما أن يكون مثل قوله: ﴿سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] فالمعنى؛ وتقيكم الرد ثم حُذِفَ؛ وكذلك يكون هذا المعنى ولتستبين سبيل المؤمنين ثم حذف. والجواب الآخر أن يقال: استبان الشيء واستتبته؛ وإذا بان سبيل المجزمين فقد بان سبيل المؤمنين. والسبيل يذكر ويؤنث؛ فتميم تذكره، وأهل الحجاز تؤنثه؛ وفي التنزيل ﴿وَأَنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ [الأعراف: ١٤٦] مذكر ﴿لَمْ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٩٩] مؤنث؛ وكذلك قرئ ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ بالياء والتاء؛ فالتاء خطاب للنبي ﷺ والمراد أمته.

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَ كَرِهْتُ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قيل: «تدعون» بمعنى تعبدون. وقيل: تدعونهم في مهمات أموركم على جهة العبادة؛ أراد بذلك الأصنام. ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ فيما طلبتموه من عبادة هذه الأشياء، ومن طرد من أردتم طرده. ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا﴾ أي: قد ضللت إن اتبعت أهواءكم. ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أي: على طريق رشد وهدى.

وقرئ ﴿ضَلَلْتُ﴾ بفتح اللام وكسرها وهما لغتان. قال أبو عمرو بن العلاء: ضَلَلْتُ بكسر اللام لغة تميم، وهي قراءة يحيى بن وثاب وطلحة بن مُصَرِّف، والأولى هي الأصح والأفصح؛ لأنها لغة أهل الحجاز، وهي قراءة الجمهور. وقال الجوهري: والضلال والضلالة ضد الرشاد، وقد ضَلَلْتُ أَضِلُّ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ [سبا: ٥٠] فهذه لغة نجد، وهي الفصيحة، وأهل العالية يقولون: ضَلَلْتُ بالكسر أَضِلُّ.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ يَقْضِ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِيلِينَ﴾ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي: دلالة وبقين وحجة وبرهان، لا على هوى؛ ومنه البينة لأنها تبين الحق وتظهره. ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ أي: بالبينة لأنها في معنى البيان؛ كما قال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ [النساء: ٨] على ما بيناه هناك. وقيل يعود على الرب، أي: كذبتهم بربي لأنه جرى ذكره. وقيل: بالعذاب. وقيل: بالقرآن. وفي معنى هذه الآية والتي قبلها ما أنشده مصعب بن عبد الله بن الزبير لنفسه، وكان شاعراً محسناً رضي الله عنه:

أَقْعُدْ بَعْدَ مَا رَجَفْتُ عِظَامِي
أَجَادِلْ كُلَّ مُعْتَرِضٍ خَصِيمٍ
فَأَتْرُكْ مَا عَلِمْتُ لِرَأْيِ غَيْرِي
وَمَا أَنَا وَالْخَصُومَةُ وَهِيَ شَيْءٌ
وَقَدْ سَنَّتْ لَنَا سَنَنُ قَوَامٍ
وَكَانَ الْحَقُّ لَيْسَ بِهِ خِفَاءٌ
وَمَا عَوْضٌ لَنَا مِنْهَا جَهَنَّمُ
فَأَمَّا مَا عَلِمْتُ فَقَدْ كَفَانِي

وَكَانَ الْمَوْتُ أَقْرَبَ مَا يَلِينِي
وَأَجْعَلُ دِينَهُ غَرَضًا لِدِينِي
وَلَيْسَ الرَّأْيُ كَالْعِلْمِ الْيَقِينِ
يُصَرِّفُ فِي الشَّمَالِ وَفِي الْيَمِينِ
يَلْحَنُ بِكُلِّ فَجٍّ أَوْ وَجِينِ
أَغَرَّ كَفُورَةُ الْفَلَقِ الْمِينِ
بِمَنْهَاجِ ابْنِ أَمْنَةِ الْأَمِينِ
وَأَمَّا مَا جَهِلْتُ فَجَنَّبُونِي

قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي: العذاب؛ فإنهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله استهزاء نحو قولهم: ﴿أَوْ تَسْقُطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتُمْ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ [الإسراء: ٩٢] ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] وقيل: ما عندي من الآيات التي تقترحونها. ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: ما الحكم إلا لله في تأخير العذاب وتعجيله. وقيل: الحكم الفاصل بين الحق والباطل لله. ﴿يَقْضِ الْحَقُّ﴾ أي: يقض القصص الحق؛ وبه استدل من منع المجاز في القرآن، وهي قراءة نافع وابن كثير وعاصم ومجاهد والأعرج وابن عباس؛ قال ابن عباس قال الله عز وجل: ﴿نَحْنُ نَقْضُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقُصَصِ﴾ [يوسف: ٣] والباقون «يَقْضِ الْحَقُّ» بالضاد المعجمة، وكذلك قرأ علي رضي الله عنه وأبو عبد الرحمن السلمي وسعيد بن المسيب، وهو مكتوب في المصحف بغير ياء، ولا ينبغي الوقف عليه، وهو من القضاء؛ ودل على ذلك أن بعده ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ والفصل لا يكون إلا قضاء دون قصص، ويقوي ذلك قوله قبله: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ويقوي ذلك أيضاً قراءة ابن مسعود «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي بِالْحَقِّ» فدخل الباء يؤكد معنى القضاء. قال النحاس؛ هذا لا يلزم؛ لأن معنى «يقضي» يأتي ويصنع فالمعنى: يأتي الحق، ويجوز أن يكون المعنى: يقضي القضاء الحق. قال مكي: وقراءة الصاد أحب إلي؛ لاتفاق الحرمين وعاصم على ذلك، ولأنه لو كان من القضاء للزمت الباء فيه كما أنت في قراءة ابن مسعود. قال النحاس: وهذا الاحتجاج لا يلزم؛ لأن مثل هذه الباء تحذف كثيراً.

﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ ٥٠ ٥١

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي: من العذاب لأنزلته بكم حتى ينقضي الأمر إلى آخره. والاستعجال: تعجيل طلب الشيء قبل وقته. ﴿وَاللَّهُ أَهْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي: المشركين وبوقت عقوبتهم.

تم الجزء السادس من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السابع وأوله قوله تعالى:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾